الأنوار البهية في سورة الكهف الجلية

محمود حسن حجازي

الألوكة
www.alukah.net
00201156800204

الأنوار البهية

في سورة

الكهف الجلية

بقلم

محمود حسن حجازي

2020-1442

الإهـداء

إهداء إلى روح أبي العزيز،،،

إهداء إلى أمي الغالية،،،

إهداء إلى زوجتي الحبيبة،،،

إهداء إلى ابني الحبيب،،،

إهداء إلى ابنتي الغالية،،،

إهداء إلى كل أحبابي،،،

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ..

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ آل عمران: ١٠٢

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ النساء: ١

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ الأحزاب: ٧٠ – ٧١

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ الحشر: ١٨

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كلام الله ﷻ، وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار..

من فضل الله ﷻ ونعمته علينا إنزال القرآن الكريم على عبده ليكون شفاءً ونوراً وهدى ورحمة للعالمين، وقد وعد الله ﷻ من اتبع هذا القرآن بالعزة والكرامة والهداية والاطمئنان والراحة والحياة الطيبة والأجر والمثوبة منه ﷻ.

والقرآن الكريم هداية للناس وشفاء لما في الصدور، فأمر الله ﷻ كل قارئ للقرآن أن يتحصن به ﷻ من الشيطان الرجيم ووساوسه وحزبه، كما شرع الله ﷻ لكل قارئ للقرآن العظيم أن يستعيذ بالله ﷻ من الشيطان الرجيم؛ قال ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ النحل: ٩٨

القرآن الكريم هو الكتاب العظيم الذي لا شك أنه من عند الله ﷻ، فلا يصح أن يرتاب فيه أحد لوضوحه، ينتفع به المتقون بالعلم النافع والعمل الصالح، وهم الذين يخافون الله ﷻ ويتبعون أحكامه.

فقد لامست سورة الكهف كل جمعة شغاف قلبي وحبات عقلي وذرات جسمي وهمت بها، فأعطاني الله ﷻ فيها من عمق التدبر العقلي، وشدة التأثر القلبي، ما جعلني أشعر أنها جزء من منظومة فكري ومنهاج حياتي، فقرأ سورة الكهف تستدعي الملائكة وتستجلب السكينة، فمن أراد السكينة لقلبه المضطرب، فليقرأ سورة الكهف، عن البراء ﷺ قال: "كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه

حصان مربوط بشطنين، فتغشته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: تلك السكينة تنزلت بالقرآن"[1].

ولتجعل من قراءة سورة الكهف كل جمعة فرصة محاسبة أسبوعية تتعرف فيها على مواضع نجاحك وتفوقك خلال الأسبوع، فتشكر الله ﷻ عليها، وتراجع مواضع إخفاقك وأسباب تعثرك، فتستغفره منها، فقرأتها يوم الجمعة نور كما قال ﷺ: "من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين"[2]، فبقراءتك لهذه السورة تحوز على طاقة نورانية عظيمة، تشع من آياتها المباركة، فتضيء قلبك، ويزداد النور قوة وتأثيراً كلما زاد تدبرك لها لاستجلاء كنوزها ومعانيها.

وسورة الكهف هي نسيج متكامل متوازن متدرج في الإصلاح والتغيير، فالقصص الواردة فيها هي عبارة عن تيار من الإصلاح من السيئ إلى الحسن ومنه إلى الأحسن، من خلال القصص التالية:

1. أصحاب الكهف.
2. صاحب الجنة.
3. موسى والخضر.
4. ذو القرنين.

وجميع القصص تشترك في كونها عبارة عن مشوار متدرج واضح المعالم في الإصلاح والتغيير، إما من السيئ إلى الحسن ثم الأحسن في القصص الثلاثة (أصحاب الكهف، وصاحب الجنة، وذي القرنين، أو من الحسن إلى الأحسن في قصة موسى عليه السلام والخضر.

---

[1] صحيح البخاري (188/6)، صحيح مسلم (1/ 547).
[2] السنن الكبرى للبيهقي (3/ 353)

وفي عصور الفتن والمحن، حيث يزداد الظلام كثافة، وتتلبد سماء الواقع بغيوم الشبهات والشهوات وسحب الامتحانات التي يتعرض إليها الإنسان فرداً كان أو في مجتمع، تزداد حاجته إلى كهف يؤويه ويحميه، نور يضيء له طريق الحياة وسط تلك الفتن، خارطة طريق توضح له المسار الذي يأخذ بيده إلى الرشد والصلاح وسورة الكهف تلبي هذه المقاصد لمن يتدبر في معانيها العظيمة ويقف عند آياتها ودروسها بقلب صادق ونفس متضرعة تتوجه إلى خالقها بالتوحيد والتعظيم، شعارها؛﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ الكهف: ١٠، وتشكل سورة الكهف أعظم وقاية من أعظم فتنة على وجه الأرض على الإطلاق فتنة الدجال، والعلاقة بين الفتن الأربعة وفتنة الدجال وثيقة، فمن تسلَّح بالإيمان الذي يؤهله للنجاة من الفتن الأربعة الصغرى، سيكون مستعداً غداً لمواجهة الفتنة الكبرى فتنة الدجال، قال ﷺ: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال"[1].

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى وسلم على نبينا محمدﷺ وآله وصحبه أجمعين

كتبه

العبد الفقير إلى ربه ﷻ

محمود حسن حجازي

أبو حازم

[1] صحيح مسلم (1/ 555).

ملحوظات

كل لون في هذا الكتاب يرمز لشيء معين وهي على النحو التالي:

اللون الأحمر: يدل على الآيات القرآنية والجملة الاعتراضية.

اللون الأزرق: يدل على أقوال السلف والتابعين في فقرة ومضة.

اللون البنفسجي: يدل على أقوال العلماء والمفسرين.

اللون الأخضر: يدل على تعليقاتي.

اللون الأزرق الغامض: تدل على التوضيح.

تعريف عام بالسورة

أولاً: سبب التسمية:

سميت سورة الكهف لما فيها من المعجزة الربانية في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف.

ثانياً: التعريف بالسورة:

سورة الكهف كلها مكية باتفاق المفسرين، وقد نزلت دفعة واحدة، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: "نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألفاً من الملائكة"[1]، ولقد نزلت بعد سورة الغاشية، وقبل سورة الشورى، وهي الثامنة والستون في ترتيب نزول السور، وعدد آياتها 110 آية، تبدأ بأسلوب الثناء، بدأت بالحمد لله، تحدثت السورة عن قصة ذي القرنين وعن موسى عليه السلام والرجل الصالح.

ثالثاً: سبب نزول السورة:

أنه لما كثُر عدد المسلمين وأصبح الوافدون من القبائل العربية إلى مكة يُكثِرون السؤال حول دعوة النبي ﷺ، فأرسل المشركون رجلين هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى المدينة المنورة ليسألوا أحبار اليهود فيها عن رأيهم في أمر محمد ﷺ ودعوته، وحين أتَوْهم وصفوه لهم وأخبروه بما يقول، وطلب الأحبار منهم أن يسألوه عن ثلاثِ مسائل، فإن أجاب عنها فهو نبي، وإن لم يُجب فهو يدّعي النبوة، وكانت المسائل الثلاث عن أمر فتيةٍ في الأمم السالفة، وعن ماهية الروح، وعن أمر رجلٍ جاب الأرض مشرقها ومغربها، فلما رجعوا ذهب عددٌ من مشركي قريش إلى النبي ﷺ وسألوه عمّا أخبرهم به اليهود، فأجابهم أنه سيخبرهم بجواب ما سألوه

[1] الفردوس بمأثور الخطاب (4/ 275).

غدًا، ولم يقل إن شاء الله، فتأخّر عنه الوحي خمسة عشر يومًا، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ وحَزِن، ثم أنزل الله ﷻ جبريل عليه السلام بسورة الكهف متضمّنة لجواب سؤالهم عن أمر الفتية وذي القرنين، أما أمر الروح فقد نزل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء: ٨٥، وأنزل الله ﷻ مع الجواب توجيهًا للنبي ﷺ، فقال ﷻ: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ الكهف: ٢٣ - ٢٤[1]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والاسود بن المطلب وأبو البختري في نفر من قريش وكان رسول الله ﷺ قد كَبُرَ عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء به من النصيحة فأحزنه حزناً شديداً فأنزل الله ﷻ:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ الكهف: ٦[2]، وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا يا رسول الله إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك

[1] البحر المحيط في التفسير (7/ 162).
[2] فتح البيان في مقاصد القرآن (12/8)

وأخذنا عنك ؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ الكهف: ٢٧ – ٢٨، يتهددهم بالنار فقام النبي ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله ﷻ قال: "الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات"[1].

وعن ابن عباس ﷺ في قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ الكهف: ٢٨ ، قال نزلت في أمية بن خلف الجمحي وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه من تحرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ الكهف: ٢٨، يعني من ختمنا على قلبه عن التوحيد واتبع هواه يعني الشرك.[2]

[1] شعب الإيمان (99/13).

[2] أسباب النزول للسيوطي (298/1).

رابعاً: فضل السورة:

عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال"[1]

وعن أبي العالية ﷺ قال قرأ رجل سورة الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فينظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته فذكر للنبي ﷺ قال: "اقرأ فلان فإنها السكينة نزلت للقرآن"[2].

قال النبي ﷺ: "من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق "[3]

خامساً: أغراض السورة:

أما الأغراض الأساسية للسورة فهي: تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان العقيدة، وقد سخرت القصص الواردة في السورة من أجل هذه الأهداف.

سادساً: مقاصد السورة:

ومن مقاصد سورة الكهف التالي:

1. افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن تطاولاً من الله ﷻ على المشركين وملقنيهم من أهل الكتاب.[4]

---

[1] مسند أحمد (45/ 526).
[2] صحيح البخاري (4/ 201).
[3] السنن الصغرى للبيهقي (1/ 342).
[4] تفسير التحرير والتنوير (15/ 245).

2. إثبات البعث واليوم الآخر وما فيه من الأهوال والعذاب للكافرين والتواب العظيم للمؤمنين. فقد جاء في مقدمة قصة أصحاب الكهف التي ساقها الله ﷻ حقيقة من حقائق التاريخ الواقعية، دليل على قدرته، وتنظير لما ينكره الكافرون من أمر البعث والنشور، قوله ﷻ: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ الكهف: ٩ [1]

3. ابتلاء الله ﷻ وامتحانه لخلقه، وبخاصة منهم الكفار وأهل الكتاب. بالحياة الدنيا وزينتها وأنها لا تكسب النفوس الزكية وتبشير المؤمنين اللذين يعملون الصالحات بالأجر والثواب، كما في قوله ﷻ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ الكهف: ١ – ٤

4. تقرير وحدانية الله ﷻ وما عداه وإنذار المعاندين اللذين نسبوا لله ﷻ ولداً[2]، كما في قوله ﷻ: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ الكهف: ٤، وقوله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ

[1] أهداف كل سور ومقاصدها في القرآن الكريم ص 208
[2] التحرير والتنوير (15/ 245)

عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ الكهف: ١٤ – ١٥، وفي قوله: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ الكهف: ٣٧ – ٣٨، وفي قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف: ١١٠.

5. إشارة إلى أن نصيب الإنسان من خير وشر إنما بمشيئة الله ﷻ وتدبيره فهم المهيمن والمهيء لأسباب ومالكها ومصرفها كما في قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ الكهف: ٣٩ ـ ٤١[1]

6. حذرهم الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده[2].

7. التأكيد على أن الله ﷻ يستجيب لدعاء المؤمنين الصادقين ويهيء لهم أسباب النجاة والرزق، كما فعل بأصحاب الكهف في قوله: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا

[1] الصراع بين الحق والباطل في سورة الكهف / فهد السويدان ص 20

[2] التحرير والتنوير (15/ 245).

يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ الكهف: ١٦[1]

8. قدم لقصة ذي القرنين قصة أهم منها وهي قصة موسى عليه السلام والخضر لأن كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف، فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم.[2]

9. مظاهر قدرة الله سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته[3] وقدرته على وضع المعجزات والخوارق الباهرة كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ الكهف: ٧، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ الكهف: ١٧.

10. الشوق والإيمان وآثاره في النفوس، ومن تلك الآثار: اختيار المؤمن الهجرة[4] وعدم الرضوخ للحكام الظالمين وجبروتهم كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ الكهف: ١٦.

---

[1] الصراع بين الحق والباطل في سورة الكهف/ فهد السويدان ص 19

[2] التحرير والتنوير (245/15).

[3] أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (1/ 833)

[4] الصراع بين الحق والباطل في سورة الكهف/ فهد السويدان ص19

11. تسلية الرسول ﷺ والمؤمنين، وبيان الفرج يأتي بعد الشدة وإرشاده وتثبيته وأن الحق فيما أخبر به[1].

12. وفي السورة وصف للقائد الصالح المؤمن، وذكرت لمقومات القيادة المؤمنة الراشدة من العزيمة القوية، ورجاحة العقل، وسداد الرأي، ونفاذ البصيرة، وهي صفات تعين على مكافحة الظلم، وإرجاع الأمور إلى نصابها، ونشر لواء العدل، والقيام بأجل الأعمال مع التواضع، وإرجاع النتائج إلى الله ﷻ.[2]

13. بالإضافة إلى ما ذكر فإن الصلة وثيقة بين أول السورة وخاتمتها في إثبات وحدانية الله ﷻ وأن القرآن وحي من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ فكان هذا الختام محسن رد العجز على الصدر[3].

14. وصف الكتاب بأنه قيّم، لكونه زاجراً عن الشريك الذي هو خلاف ما قام عليه الدليل في "سبحان"، من أنه لا وكيل دونه ولا إله إلا هو وقاصاً بالحق أخبار قوم قد فضّلوا في أزمانهم، وفق ما وقع الخبر به في سبحان، من أنه يفضّل ما يشاء ويفعل ما يشاء. وأدلّ ما فيها على هذا المقصد: قصة أهل الكهف؛ لأن خبرهم أخفى ما فيها من القصص، مع أنّ سبب فراقهم لقومهم الشرك وكان أمرهم موجباً بعد طول رقادهم للوحدانية، وإبطال الشرك[4].

---

[1] التحرير والتنوير (15/ 246).
[2] الصراع بين الحق والباطل في سورة الكهف/ فهد السويدان ص 22
[3] التحرير والتنوير (15/ 246)
[4] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي (2/ 243)

سابعاً: محور مواضيع السورة:

سورة الكهف من السور المكية وهي إحدى سور خمس بُدِئت بـ " الحمد لله " وهذه السور هي الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر " وكلها تبتدئ بتمجيد الله ﷻ وتقديسه والاعتراف له بالعظمة والكبرياء والجلال والكمال.

وقصص سورة الكهف الأربعة يربطها محور واحد وهو أنها تجمع الفتن الأربعة في الحياة: فتنة الدين (قصة أهل الكهف)، فتنة المال (صاحب الجنتين)، فتنة العلم (موسى عليه السلام والخضر) وفتنة السلطة (ذو القرنين).

وهذه الفتن شديدة على الناس والمحرك الرئيسي لها هو الشيطان الذي يزيّن هذه الفتن ولذا جاءت الآية: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف: ٥٠، ولهذا قال الرسول ﷺ أنه من قرأها عصمه الله ﷻ من فتنة الدجّال؛ لأنه سيأتي بهذه الفتن الأربعة ليفتن الناس بها، وقد قال ﷺ: "ما بين خلق آدم وقيام الساعة ما من فتنة أعظم من الدجال"[1]، وكان النبي ﷺ يستعيذ في صلاته من أربع منها فتنة المسيح الدجال.

وقصص سورة الكهف كلها تتحدث عن إحدى هذه الفتن ثم يأتي بعده تعقيب بالعصمة من الفتن:

[1] المعجم الكبير للطبراني (22/ 174).

1. فتنة الدين:

قصة الفتية الذين هربوا بدينهم من الملك الظالم فآووا إلى الكهف حيث حدثت لهم معجزة إبقائهم فيه ثلاثمئة سنة وازدادوا تسعاً وكانت القرية قد أصبحت كلها على التوحيد، ثم تأتي آيات تشير إلى كيفية العصمة من هذه الفتنة ، ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٢٩ ﴾ الكهف: ٢٨ – ٢٩، فالعصمة من فتنة الدين تكون بالصحبة الصالحة وتذكر الآخرة.

2. فتنة المال:

قصة صاحب الجنتين الذي آتاه الله ﷻ كل شيء فكفر بأنعم الله ﷻ وأنكر البعث فأهلك الله ﷻ الجنتين، ثم تأتي العصمة من هذه الفتنة؛ ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَاحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦ ﴾ الكهف: ٤٥ - ٤٦، والعصمة من فتنة المال تكون في فهم حقيقة الدنيا وتذكر

الآخرة.

3. فتنة العلم:

قصة موسى عليه السلام مع الخضر، وكان موسى عليه السلام ظنّ أنه أعلم أهل الأرض فأوحى له الله سبحانه وتعالى بأن هناك من هو أعلم منه فذهب للقائه والتعلم منه فلم يصبر على ما فعله الخضر عليه السلام؛ لأنه لم يفهم الحكمة في أفعاله وإنما أخذ بظاهرها فقط، وتأتي آية العصمة من هذه الفتنة؛ ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ ﴾ الكهف: ٦٩ ، **والعصمة من فتنة العلم هي التواضع وعدم الغرور بالعلم.**

4. فتنة السلطة:

قصة ذو القرنين الذي كان ملكاً عادلاً يمتلك العلم وينتقل من مشرق الأرض إلى مغربها يعين الناس ويدعو إلى الله سبحانه وتعالى وينشر الخير حتى وصل لقوم خائفين من هجوم يأجوج ومأجوج فأعانهم على بناء سد لمنعهم عنهم وما زال السدّ قائماً إلى يومنا هذا، وتأتي آية العصمة؛ ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ ﴾ الكهف: ١٠٣ - ١٠٤، **فالعصمة من فتنة السلطة هي الإخلاص لله عز وجل في الأعمال وتذكر الآخرة.**

ختام السورة:

العصمة من الفتن: آخر آية من سورة الكهف تركّز على العصمة الكاملة من الفتن بتذكر اليوم الآخرة، قال سبحانه وتعالى ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ

وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

﴿ الكهف: ١١٠، فعلينا أن نعمل عملاً صالحاً صحيحاً ومخلصاً لله ﷻ حتى يَقبل، والنجاة من الفتن انتظار لقاء الله ﷻ.

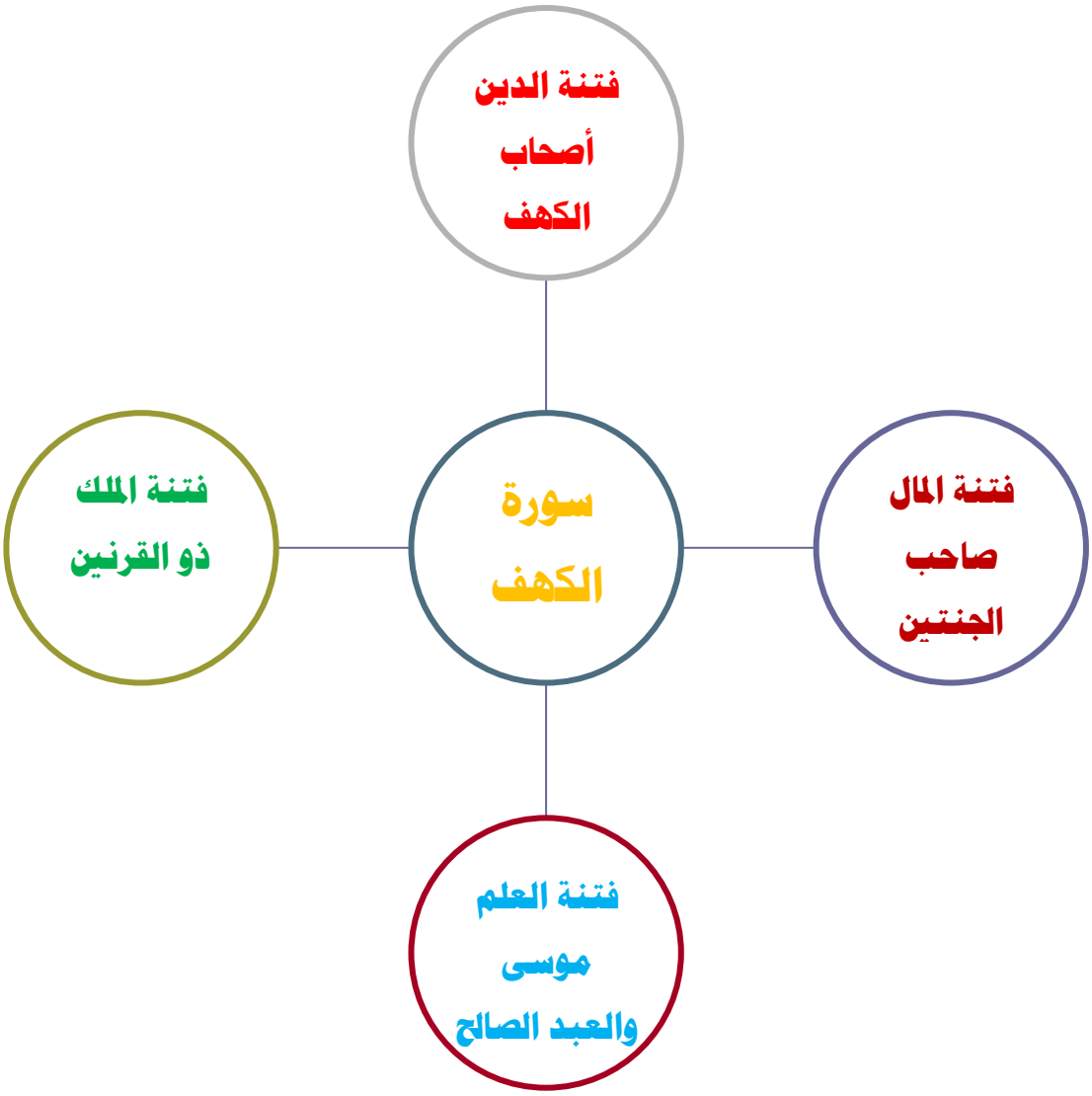

الفقرة الأولى

نعمة القرآن وحقيقة الدنيا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ
عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ
فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم
بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ
يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً
لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا
جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ الكهف: ١ – ٨

الآية الأولى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾

﴿١﴾ الكهف: ١

تبدأ سورة الكهف بحمد لله ﷻ، والحمد هو الثناء الحسن على جهة التعظيم والتوقير، وفي هذا البدء تعلم وإرشاد للعباد كي يبدؤوا أمورهم بحمد لله ﷻ على نعمه، ومن نعم الله ﷻ التي يستحق الحمد عليها إنزال الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ، ووصفه ﷻ لرسوله ﷺ بالعبودية في مقام إنزال الكتاب؛ لأن هذا الوصف أفضل ما يوصف به المؤمن وأشرفه[1]، وإنزال القرآن من أعظم النعم التي تستوجب حمد الله ﷻ، لذا حمد الله ﷻ ذاته العلية على هذه النعمة تذكيراً لعباده بالحمد وتعليماً لهم، وهذا هو الحمد الأوجب والأهم، فلولا القرآن لزاغت القلوب وتزلزل الإيمان وتمكن الشيطان واشتدت الأحزان[2].

يقول القاسمي: "افتتحت السور ب (الحمد لله إشارة إلى أنه المحمود على كل حال، وتعليماً للعباد أدب افتتاح كل أمر ذي بال واختتامه؛ وذلك بالثناء على الله ﷻ بنعمه العظمى، ومننه الكبرى، وفي إيثار إنزال التنزيل من بين سائر نعوته العلية، تنبيه على أنه أعظم نعمائه. فإنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد، ولا شيء في معناه يماثله، وفي ذكر الرسول ﷺ بعنوان العبودية، تنبيه على عظمة المنزل والمنزل عليه، وإشعار بأن شأن الرسول ﷺ أن يكون عبداً للمرسِل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام، وتعريف الكتاب

[1] التفسير المنهجي (6/ 10)
[2] أنوار النجاة في سورة الكهف/ خالد أبو شادي ص 19

للعهد، أي الكتاب الكامل الغني عن الوصف بالكمال، المعروف بذلك من بين الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به، وهو عبارة عن جميع القرآن، أو عن جميع المنزل حينئذ."[1]

"ثم بين ﷻ أن المنزل وهو القرآن الكريم، لا اعوجاج فيه، ولا اختلاف بين معانيه، ولا تعارض بين ألفاظه ومدلولاته، فهو في ذاته محمود؛ لخلوه من كل ما يعتري كتب البشر من هذه النواقص"[2].

يقول وهبة الزحيلي: "يحمد الله ﷻ نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم ﷺ إذ أخرج الناس من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، فمعنى قوله: ولم يجعل له عوجاً أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً بل جعله معتدلاً مستقيماً.

والحمد معناه: الشكر والثناء بالجميل على الفعل الجميل الصادر بالاختيار من الله ﷻ، والله ﷻ محمود على كل حال، ويحمد نفسه أحياناً عند فواتح السور وخواتمها، لتعليم العباد كيف يحمدونه على نعمه الجليلة التي أنعم بها عليهم، ومن أهمها نعمة الإسلام وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم"[3].

قال القاسمي: "وقوله ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي شيئاً من العوج، باختلال في نظمه وتنافٍ في معانيه، أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق، بل جعله مزيلاً للعوج؛ إذ جعله: قيماً بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع، فهو وصف له

---

[1] محاسن التأويل (4/7)
[2] التفسير المنهجي (6/ 10)
[3] التفسير المنير/ وهبة الزحيلي (15/ 203)

بأنه مكمل لهم، بعد وصفه بأنه كامل في نفسه أو قيماً على الكتب السالفة، مهيمناً عليها، أو متناهياً في الاستقامة والاعتدال، فيكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له حسبما تنبئ عنه الصيغة، وينذر من خالفه ولم يؤمن به عذاباً شديداً عاجلاً أو أجلاً ويبشر بمقابلهم المؤمنين الذين يعملون الخيرات والفضائل بالجنة."[1]

قال ابن القيم رحمه الله: "الكونُ كلُّه ناطِقٌ بحمد الله ﷻ، وقائِمٌ بحمده، وكلُّ مَوْجُودٍ شاهِدٌ بحمده، وإرسالُه رسولَه ﷺ بحمده، وإنزالُه كتُبَه بحمده، والجنةُ عَمُرتْ بأهلها بحمده، والنارُ عَمُرتْ بأهلها بحمده، وما أُطيع إلاَّ بحمده، ولا يتحرَّكُ في الكونِ ذرةٌ إلاَّ بحمده، وهو المحمود لذاته – وإنْ لم يحمدْه العباد، فله الحمدُ كلُّه، وله المُلك كلُّه، وبيده الخيرُ كلُّه، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كلُّه"[2]

[1] محاسن التأويل (7/ 4).
[2] مدارج السالكين (2/ 215).

الآية الثانية: ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ ﴾ الكهف: ٢

تبدأ الآية بلفظ قيماً وهو تأكيد على خلو القرآن من أدنى عوج، وإشارة إلى أنه كتاب كامل في ذاته، ومهيمن على غيره من الكتب السابقة، وهو قائم بتبيين مصالح العباد الدينية والدنيوية.

"ثم بيّن ﷻ أن في القرآن إنذار وبشارة، فالإنذار من عذاب الله ﷻ الشديد لمن يستحقه، وهو عذاب عظيم؛ لأنه من عند الله ﷻ، والبشارة للذين آمنوا بالله ﷻ إيماناً صادقاً، وعلموا الأعمال الصالحة بأن لهم في مقابل ذلك أجراً حسناً، وأنهم سيبقون متمتعين به زمناً طويلاً لا نهاية له ولا انقطاع"[1].

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي مستقيماً، وأتى بهذه الصفة بعد نفي الاعوجاج للتأكيد، فربَّ مستقيم مشهود له بالاستقامة لا يخلو من أدنى عوج عند الفحص والاختبار، وقيل معناه: قيماً على سائر الكتب، مصدقاً لها، شاهداً بصحتها، وقيل: قيماً بمصالح العباد، وما لا بد منه من الشرائع.

لينذر: أي ليخوف الذين كفروا بالكتاب عذاباً شديداً، وعقوبة عاجلة في الدنيا وهو النكال، وآجلة في الآخرة وهو نار جهنم لقوله: ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾

[1] التفسير المنهجي (10/6).

ويبشر المؤمنين بهذا القرآن الذين دعموا إيمانهم بالعمل الصالح، أن لهم مثوبة جميلة عند الله ﷻ، وهي الجنة دار المتقين الأبرار، ودار الخلود أبداً للمحسنين الأخيار، فالأجر الحسن الجنة."[1]

أن من أهم حكم إنزال القرآن الإنذار، فلا تلغِ هذا الفصل من قاموسك بحجة سماحة الإسلام وعدم التشدد.

فالقرآن الكريم جاء للإنذار، فهم نذير كما قال الله ﷻ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ الفرقان: ١ ، فهو نذيراً للعالمين، قال ﷻ: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۝١٩ ﴾ الأنعام: ١٩، كما أنه كتاب قيماً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ, ولا باطل، قال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧ ﴾ يونس: ٣٧، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ فصلت: ٤١ – ٤٢

[1] التفسير المنير/ وهبة الزحيلي (15/ 203).

فاجعل القرآن لك صاحب، فهو الصاحب الوفي والأنيس في الخلوات، وهو شفاء لنفسٍ أنْهَكتها المعاصي والآثام، وشفاء لجسد أتعَبته الأمراض والآلام، وهو ارتقاء رُوحي؛ لتسمو الروح في بحر الطمأنينة، وارتقاء فكري؛ ليَسبح العقل في التفكُّر والتأمُّل.

الآية الثالثة: ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ الكهف: ٣

أي مستقرين في ثوابهم عند الله ﷻ وهو الجنة إلى الأبد، وخالدين فيه دائماً، لا زوال له ولا انقضاء.[1] فهم باقون في النعيم متمتعين به زمناً طويلاً لا نهاية فيه ولا انقطاع، فهو بقاء دائم.

يقول ابن عثيمين: "باقين فيه أبداً، إلى ما لا نهاية، فلا مرض ولا موت ولا جوع ولا عطش ولا حر ولا برد، كل شيء كامل من جميع الوجوه."[2]

فهم دائمون في دار الخلد لا يموتون فيها أبداً، **قال القرطبي**: "أي دار الخلد لا يموتون فيها، الذين صدقوك بما جئت به مما كذبك به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال."[3]

ترقّ القلوب وتصفو الأرواح المشتاقة عند ذكر نعيم الجنة، فالجنّة هي من أعظم أماني العبد المؤمن، فهي النعيم المقيم والأُنس الذي لا كدر فيه، وهي دار الفرح والسعادة، فالجنة هي النعيم الذي أعده الله ﷻ للمؤمنين به والممتثلين لتعاليمه، وهي نعيم دائم وليس مؤقتاً.

[1] التفسير المنير (15/ 204).
[2] تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (1/ 12).
[3] الجامع لأحكام القرآن القرطبي (348/10).

الآية الرابعة: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ الكهف: ٤

"ذكر الله ﷻ في هذه الآية فئة من الكافرين الذين أنذرهم القرآن، المستحقين عذاب الله ﷻ، وهم الذين زعموا أن لله ﷻ ولداً، والذين افتروا هذا الافتراء العظيم أصناف متعددة فمنهم اليهود الذين قالوا: ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ التوبة: ٣٠، ومنهم النصارى الذين قالوا: ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ التوبة: ٣٠، ومنهم مشركو العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله ﷻ"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي ويحذر الكفار الذين زعموا أن لله ﷻ ولداً، وهم مشركو العرب الذين قالوا: نحن نعبد الملائكة بنات الله ﷻ، واليهود الذين اتخذوا عزيراً ابن الله ﷻ، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله ﷻ، وإنما خص هؤلاء مع دخولهم في الإنذار العام المتقدم للكافرين، للدلالة على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله ﷻ."[2]

لا تكن من الذين يفترون على الله ﷻ كذباً، فهؤلاء لهم عذب أليم، ولا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، قال ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ يونس: ٦٩، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ النحل: ١١٦، فالله ﷻ واحد أحد لم يتخذ ولداً، وليس له

[1] التفسير المنهجي (6/ 10- 11)
[2] التفسير المنير للزحيلي (204/15)

شريك في الملك، قال ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١ ﴾ الإسراء: ١١١

قال ابن القيم رحمه الله: "إن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله ﷻ، وعليه وحشة لا يزيلها إلّا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلّا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده المطلوب، وفيه فاقة لا يسدها الا محبته ودوام ذكره والإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً"[1]

[1] مدارج السالكين (156/3).

الآية الخامسة: ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ الكهف: ٥

أي ما لهم ولا لآبائهم أي أسلافهم علم ثابت بهذا القول الذي افتروه وهو اتخاذ الولد لله ﷻ أو الوالد، وإنما هو صادر عن جهل مفرط وتقليد للآباء، ومن تسويل الشيطان. وانتفاء العلم بالشيء: إما للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يصلح محلاً للعلم به.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي عظمت تلك الكلمة التي ينطقون بها، ويخرجونها من أفواههم متجرئين على النطق بها، وهي كلمة الكفر، فليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أي ما يقولون إلا قولاً مجرد كذب وزور، ولا حقيقة له أصلاً"[1]

تبين هذه الآية أن هؤلاء الذين يزعمون بأن لله ﷻ ولداً، إنما يطلقونه من دون علم، وهم متبعون لآبائهم وأسلافهم في ترديد الافتراء، وهو كلام فاجر قبيح لا يجوز لهم التلفظ به، وهو كذب محض واختلاق باطل، ولو فكروا فيه بعقولهم لتبين لهم فساده وضلاله، ولما تلفظوا به.

[1] التفسير المنير (15/ 204)

"والمراد إبطال حجتهم، كبر خروجها وعظمت بشاعة قولهم وقبحه ووقاحته، هذا بمجرد التفوه به، فكيف باعتقاده؟ وفي الآية إيماء إلى مثل ذلك الكلام ليس له مصدر إلا الأفواه، لاستحالة أن تتقبله العقول السوية"[1]

قال ابن القيم رحمه الله: "إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه الا الله ﷻ وحده تحمل الله ﷻ حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وان أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله ﷻ همومها وغمومها وأنكادها وكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله ﷻ وطاعته ومحبته بل بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته."[2]

[1] أنوار النجاة في سورة الكهف/ خالد أبو شادي ص 20

[2] الفوائد لابن القيم ص 84

الآية السادسة: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ ﴾ الكهف: ٦

"أخبر الله ﷻ نبيه ﷺ أن هؤلاء الكافرين الذين لم يؤمنوا بالقرآن لا يستحقون منه أن يرهق نفسه ويجهدها لعدم إيمانهم، وأن يزداد أسفه على إصرارهم على الفر لدرجة إهلاك نفسه أسفاً وحزناً"[1]

يقول وهبي الزحيلي: "ثم سرّى الله ﷻ عن رسوله ﷺ وواساه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ ﴾: فلعلك قاتل نفسك ومهلكها لأن لم يؤمنوا بهذا القرآن، أسفاً وحسرة عليهم، ولعل هذا الاستفهام الإنكاري المتضمن معنى النهي، أي لا تهلك نفسك أسفاً لعدم إيمانهم، ولا تقتلها غضباً وجزعاً وحزناً عليهم، بل أبلغهم رسالة الله ﷻ، فمن اهتدى فلنفسه, ومن ضلّ فإنما يضل عليها"[2]

فلا تقتل نفسك يا محمد ﷺ على عدم إيمان الكافر بالله ﷻ أو بالقرآن، إنما أنت نذير بين عذاب شديد، فبلغ رسالة ربك ﷻ، ولا تكون في حز أو ضيق،

قال ﷻ: ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ ٨ ﴾ فاطر: ٨، **وقال** ﷻ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا

[1] التفسير المنهجي (11/6)
[2] التفسير المنير (204/15)

يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ النحل: ١٢٧، وقال ﷻ: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ الشعراء: ٣

قال ابن القيم رحمه الله: "مثال تولُّد الطاعة ونموِّها وتزايدها كمثل نواة غرستها، فصارت شجرة، ثم أثمرت، فأكلتَ ثمرها، وغرستَ نواها؛ فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره، وغرست نواه، وكذلك تداعي المعاصي فليتدبر اللبيب هذا المثال فمن ثواب الحسنةِ الحسنةُ بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئةُ بعدها."[1]

[1] الفوائد لابن القيم ص 35

الآية السابعة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ الكهف: ٧

"بين الله ﷻ لعباده حقيقة الحياة الدنيا، وأن ما فيها من زخارف وذهب ونبات وبحار وخيرات، إنما هي لاختبار البشر، ليظهر أيهم يحسن عمله فيجزى عليه خيراً"[1].

إن كل ما في الكون هو مجرد زينة غرضها الاختبار والابتلاء، وكلما زادت الزينة ازدادت صعوبة الاختبار، ونجاحك الحقيقي ألا تصرفك الزينة الفانية عن الآخرة الباقية، ولم يقل أكثر؛ لأن العبرة بالأحسن لا الأكثر.

إنا جعلنا ما على وجه الأرض من المخلوقات جمالاً لها، ومنفعة لأهلها؛ لنختبرهم أيهم أحسن عملاً بطاعتنا، وأيهم أسوأ عملاً بالمعاصي، ونجزي كلاً بما يستحق.

فالزينة التي في هذه الدنيا لاختبار العباد من منه يعمل صالحاً، ومن منهم يعمل سيئاً، **قال ابن عثيمين**: "جعل الله ﷻ الزينة لاختبار العباد سواء كانت هذه الزينة فيما خلقه الله ﷻ وأوجده، أم مما صنعه الآدمي، فالقصور الفخمة المزخرفة زينة ولا شك، ولكنها من صنع الأدمي، والأرض بجبالها وأنهارها ونباتها وإذا أنزل الله ﷻ الماء عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، هذه زينة من عند الله ﷻ"[2].

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي إنا جعلنا ما على الأرض من زخارف الدنيا من إنسان وحيوان ونبات ومعادن ومنازل ومباهج ومفاتن زينة زائلة

[1] التفسير المنهجي (14/6)
[2] تفسير القرآن الكريم (1/ 18)

لها ولأهلها، لنعاملهم معاملة المختبرين، ليعرف المحسن عمله من الفاسد، فنجازي المحسن بالثواب، والمسيء بالعقاب. وحسن العمل الزهد في الدنيا، وترك الاغترار بها، وجعلها وسيلة وجسراً للآخرة"[1].

فهذه الحياة الدنيا متاع وتفاخر بينكم، فلا تجعلوا الدنيا أكبر همكم، بل اجعلوا الآخرة أكبر همكم، ولابد أن تنجحوا في هذا الاختبار الذي وضعوا الله ﷻ لكم، قال ﷻ: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ الحديد: ٢٠، **فمتاع الدنيا قليل ولا يساوي متاع الآخرة أبداً، قال ﷻ:** ﴿ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧ ﴾ النساء: ٧٧

[1] التفسير المنير (205/15)

قال ابن القيم رحمه الله: "إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغني أنت بالله ﷻ وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله ﷻ وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله ﷻ وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله ﷻ وتودد إليه تنل بذلك غاية العزة والرفعة."[1]

[1] الفوائد لابن القيم ص 118

الآية الثامنة: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ الكهف: ٨

"ثم بين ﷻ أن مآل هذه الزينة العظيمة والزخارف المتنوعة على الأرض إلى الزوال؛ إذ سيأتي عليها زمن تصبح فيه حطاماً وركاماً، خالية من كل زينة وبهجة، وتراباً لا نبات فيه، فلا يليق أن يغتر بها الإنسان، ويركن إليها ويطمئن لما فيها"[1]

كل ما في هذه الدنيا من جمال وطيب أحوال فهو إلى زوال، إما بالقيامة الصغرى بالموت أو القيامة الكبرى، من يستطيع تغيير معالم الكون كله في لحظة، ألا يقدر على تفريج كربك في أقل من ذلك.

قال وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي وإنا لنصير الأرض وما عليها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فقوله: ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يعني كالأرض البيضاء التي لا نبات فيها ولا ينتفع بها، بعد أن كانت خضراء معشبة. وذلك مثل قوله ﷻ: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ طه: ١٠٦ – ١٠٧، والصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. والجرز في اللغة: اليابسة التي لا تنبت، أو الأرض التي لا نبات فيها.

والمقصود من الآية تسلية الرسول ﷺ والقول له: لا تحزن فإنا سنهلكهم ونبيدهم."[2]

---

[1] التفسير المنهجي (6/ 14)

[2] التفسير المنير (205/15)

قال ابن القيم رحمه الله: "إن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى، وعليه وحشة لا يزيلها إلّا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلّا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده المطلوب، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته ودوام ذكره والإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً."[1]

[1] مدارج السالكين (156/3).

الفقرة الثانية

قصة أصحاب الكهف

فتنة الدين

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ
ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن
لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ
فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ
إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ
فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ
أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ
ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ

مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ
وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ
بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ
رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ
كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ
أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ
يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ
إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ
بِهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ
أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا
تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ
ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ
عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ
ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ
غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن
دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ الكهف: ٩ – ٢٦

الآية التاسعة: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ الكهف: ٩

تبين هذه الآية أن حادثة أصحاب الكهف مع ما فيها من دلائل عظمة الله ﷻ وقدرته ليست الآية الوحيدة الدالة على عظمة الله ﷻ، ففي هذا الكون من الآيات الغريبة العجيبة ودلائل القدرة الواضحة ما يفوق هذه الحادثة، وليس أمرهم عجيباً في قدرتنا، **قال مجاهد**: "قد كان في آياتنا ما هو أعجب من ذلك"[1]

يقول وهبي الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "لا تحسب أن قصة أصحاب الكهف والرقيم وهو اسم كلبهم أو واديهم أو كتاب بنيانهم كانوا آية عجباً من آياتنا، لا تظن ذلك فآياتنا كلها عجيبة وغريبة. والرقيم في الظاهر من الآية كما رجح ابن كثير وابن جرير: الكتاب"[2]

لا تظن أيها الرسول ﷺ أن قصة أصحاب الكهف واللوح الذي كتبت فيه أسماؤهم من آياتنا عجيبة وغريبة؛ فإن خلق السموات والأرض وما فيهما أعجب من ذلك، فإن الله ﷻ قادر على كل شيء، ودلائل قدرته أكثر بكثير من قصة أصحاب الكهف، فلما العجب في ذلك، ومن دلائل قدرته ﷻ إحياء الأرض بعد موتها، قال ﷻ: ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ النحل: ٦٥، **وخلق السموات والأرض أكبر وأعظم من ذلك كلها، قال ﷻ**: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ

[1] تفسير ابن كثير (125/5).
[2] التفسير المنير (216/15).

مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ غافر: ٥٧، **قال** ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الروم: ٢٢، **وغيرها من الآيات والدلائل على قدرة الله** ﷻ.

قال ابن القيم رحمه الله: "القلب يمرض كما يمرض البدن، وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم، وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفة، والتوكل، والمحبة، والإنابة."[1]

[1] الفوائد لابن القيم ص 98

الآية العاشرة: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ الكهف: ١٠

فإن القصة تبدأ بالإخبار عن التجاء عدد من الفتية إلى كهف، واتخاذه مأوى لهم، وهم يدعون الله ﷻ أن ينزل عليهم رحمة من عنده، وأن ييسر لهم أسباب الصلاح والهداية في أمرهم، ويفهم من الآيات التالية أنهم كانوا موحدين لله ﷻ، وأن قومهم كانوا مشركين، ودعوهم إلى عبادة الأصنام فهربوا بدينهم خشية أن يفتنوهم أو يقتلوهم.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "اذكر أيها الرسول حين لجأ أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم، لئلا يفتنوهم عنه إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم عبدة الأصنام، فقالوا حين دخلوا سائلين الله ﷻ الرحمة واللطف بهم، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها، وتسترنا عن قومنا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي اجعل عاقبتنا رشداً بأن توفر المصلحة لنا، وتجعلنا راشدين غير ضالين، مهتدين غير حائرين، أو اجعل أمرنا رشداً كله"[1]

إن ضيق الكهف أحب إلى الفتية من سعة القصور وفاخر الدور، إن كانت ستنال من دينهم وطاعتهم لربهم ﷻ، وهجرة الوطن عند خوف الفتنة في الدين، **قال**

[1] التفسير المنير (216/15)

القرطبي: "هذه الآية صريحة في الفرار بالدين، وهجرة الأهل والبنين، والقرابات، والأصدقاء والأوطان، والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة"[1].

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ إن الدعاء من أعظم أسباب النجاة من الفتن، **قال ابن عطية**: "وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فقط، فإنها كافية"[2].

ولتعلم أن أغلى ما يملك المسلم وما يجب أن يحافظ عليه هو دينه، فإذا كان في مكان لا يستطيع فيه إقامته أو يخشى من الفتنة والانحراف فإن عليه الفرار بدينه إلى مكان ينجو فيه من الفتن، فالسلامة لا يعدلها شيء، والفرار إلى الله ﷻ هو عين السلامة، وبذلك أمرنا الله ﷻ حيث قال: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الذاريات: ٥٠

قال ابن القيم ﷺ: ""ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله ﷻ، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلبٌ شديدٌ لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة

[1] الجامع لأحكام القرآن (360/10).
[2] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (500/3).

إليه، ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة منه أبدًا"[1]

[1] مدارج السالكين (156/3).

الآية الحادية عشر: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ الكهف: ١١

"أي ألقينا النوم الثقيل عليهم حين دخلوا إلى الكهف، فلم يعودوا يسمعون أي صوت، وناموا سنين كثيرة معدودة"[1]

"أراد الله ﷻ لهؤلاء الفتية البقاء لمدة طويلة في كهفهم، فألقى على أسماعهم حجاباً يمنعهم من سماع الأصوات والحركات، فناموا سنين متعددة طويلة"[2]

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: " حيث ألقى الله ﷻ النوم على أصحاب الكهف وقد قال الزجاج في هذه الآية: "أي منعناهم عن أن يسمعوا، لأن النائم إذا سمع انتبه"، وقيل عن ابن عباس رضي الله عنهما: "ضربنا على آذانهم بالنوم، أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها"، وقيل: المعنى فضربنا على آذانهم أي فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شر قومهم وأنمناهم"[3]

إن للكون نواميس متى أراد الله ﷻ أن يخرقها خرقها، فهؤلاء الفتية ناموا مئات الأعوام دون طعام أو شراب، ومع هذا ظلوا أحياء، ولم تتأثر حواسهم، أو تبلى أجسامهم؛ لأن الله ﷻ أراد هذا.

---

[1] التفسير المنير (217/15)

[2] التفسير المنهجي (6/ 14)

[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (363/10).

يقول السعدي في تفسير هذه الآية: "أي أنمناهم الله ﷻ، وفسر ﴿ سِنِينَ عَدَدًا ﴾: أنها ثلاث مائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور تم حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون لهم آية بينة"[1]

قال ابن القيم رحمه الله: "أفضل ما اكتسبته النفوس وحصّلته القلوب ونال به العبد الرفعة في الدنيا والأخرة هو العلم والإيمان ولهذا قرن بينهما ﷻ في قوله: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه والمؤهلون للمراتب العالية"[2].

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 471).
[2] الفوائد لابن القيم ص 103

الآية الثانية عشر: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ الكهف: ١٢

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي ثم بعثناهم من رقدتهم تلك، وأيقظناهم من نومتهم ليظهر للناس معلومه ﷻ، أي الطائفتين المتنازعتين فيهم أحصى مدة لبثهم وغاية بقائهم نياماً، فيظهر لهم عجزهم، ويعرفوا ما صنع الله ﷻ بهم، فيتيقنوا من كمال قدرة الله ﷻ على البعث وغيره"[1].

"أيقظ الله ﷻ أصحاب الكهف من نومهم بعد سنوات متعددة، في الوقت الذي أراده، حسب مشيئته وعلمه ﷻ، ليظهر أي الفريقين المختلفين أكثر ضبطاً في تحديد مدة نوم أصحاب الكهف فيه"[2]

"أليس الله ﷻ قد علم كل شيء قبل وقوعه؟ بلى، لكن العلم هنا علم مشاهدة لا مجرد علم غيب، ولابد من خروج الحدث لعالم الشهادة والواقع لتقوم الحجة على الخلق، والعلم هنا متعلق بأي الحزبين المختلفين من الناس اختلافاً في مدة لبث أصحاب الكهف، أيهما أدق إحصاء وضبطاً لمدة لبثهم"[3]

---

[1] التفسير المنير (217/15)

[2] التفسير المنهجي (14/6)

[3] أنوار النجاة في سورة الكهف/ خالد أبو شادي ص 28

قال ابن القيم رحمه الله: "للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها: ثلاثة سافلة، وثلاثة عالية؛ فالسافلة دنيا تتزين له، ونفس تحدثه، وعدوٌ يوسوس له؛ فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها، والثلاثة العالية علم يتبين له، وعقل يرشده، وإله يعبده، والقلوب جوالة في هذه المواطن"[1].

[1] الفوائد لابن القيم ص 99

الآية الثالثة عشر: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣ ﴾ الكهف: ١٣

"فإن هذه الآية تبين أن قصة أصحاب الكهف قصة واقعية، وأن علمها عن الله ﷻ، وهي قصة شباب آمنوا بربهم ﷻ، وصدقوا في إيمانهم، وصمدوا في وجه الطغيان، وثبتهم الله ﷻ على الهدى والحق وزادهم إيماناً"[1]

يقول وهبة الزحيلي: "أي نحن نخبرك خبرهم على وجه الصدق، وهذا يعني أن الأخبار المتداولة عنهم بين العرب لم تكن صحيحة، ﴿ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ ﴾ أي إنهم شباب صدقوا بتوحيد ربهم ﷻ، وشهدوا أن لا إله إلا هو، وزدناهم توفيقاً للهداية بالإصرار على العقيدة والإقبال على الله ﷻ وإيثار العمل الصالح.

وفي هذا إيماء إلى أن الشباب أقبل للحق وأهدى للسبل من الشيوخ الذين عتوا وانغمسوا في دين الباطل، واستدل بهذه الآية: ﴿ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾ على زيادة الإيمان وتفاضله بين الناس، وأنه يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ ﴾ محمد: ١٧ [2]

والله ﷻ ذكر الشباب أكثر من غيرهم؛ لأنهم أقوى من أي فئة عمرية أخرى، قال ابن عباس ﷺ: "ما بعث الله نبياً إلا هو شاباً، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وقرأ: ﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠ ﴾ الأنبياء: ٦٠ ، ﴿ وَإِذۡ

[1] التفسير المنهجي (6/ 17)
[2] التفسير المنير (217/15).

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴿٦٠﴾﴾ الكهف: ٦٠ ، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ ﴿١٣﴾﴾ الكهف: ١٣ "[1]

هكذا كانوا ثم إلى هذا صاروا، **قال مجاهد**: "بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني الحلق، فألهمهم الله ﷻ رشدهم، وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربهم ﷻ"[2].

وكأن الله ﷻ يمدح هنا كل شاب مؤمن مهتدٍ، قال ﷺ: "إن ربك ليعجب للشاب لا صبوة له"[3]، أي ليس له ميل إلى الهوى لاعتياده الحسنات وقوة عزيمته في اجتناب السيئات.

ويقول السعدي في تفسيره لهذه الآية: " هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله ﷻ يقصها على نبيه ﷺ بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله ﷻ وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله ﷻ لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان، زادهم الله ﷻ من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال ﷻ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴿٧٦﴾﴾ مريم: ٧٦ [4]

---

[1] تفسير ابن كثير (349/5).
[2] تفسير ابن كثير (140/5).
[3] مسند الروياني (1/ 174).
[4] تيسير الكريم الرحمن (1/ 471).

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "أغمِضْ عن الدُّنيا عينَكَ، وولِّ عنها قَلبَكَ، وإيَّاكَ أن تُهلكَكَ كمَا أهلكَت مَن كان قَبلكَ، فقد رأيتُ مصَارعَها، وعاينتُ سوءَ آثارِهَا على أهلها، وكيف عَريَ مَن كَسَت، وجَاعَ مَن أطعمت، ومات مَن أحيت"[1].

[1] الزهد لأبي داود (107/1)، مجمع الأمثال (451/2).

الآية الرابعة عشر: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ الكهف: ١٤

"أي صبرناهم على مخالفة قومهم، وثبتناهم على عقيدتهم، وألهمناهم قوة العزيمة، حتى تركوا ما كان عليه قومهم من العيش الرغيد والسعادة، وقالوا حين مثلوا أمام ملكهم الجبار الذي يدعى دقيانوس والذي كان يحث الناس على عبادة الأصنام والطواغيت، ويدعوهم إليها ويأمرهم بها: ربنا هو رب السماوات والأرض، لن ندعو إلهاً من دونه مطلقاً؛ إذا لا رب سواه، ولا معبود غيره، وأن الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله ﷻ الذي خلق السماوات والأرض، وقد أعلنوا في الجملة الأولى: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ توحيد الألوهية، وذلك يقر به عبدة الأصنام، وفي الجملة الثانية: ﴿ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ توحيد الربوبية، وذلك ما ينفيه عبدة الأصنام، بدليل ما حكى القرآن: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴿٢٥﴾ ﴾ لقمان: ٢٥، وقوله: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ الزمر: ٣، أي عبادة الأصنام.

﴿ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ أي إذا دعونا غير الله ﷻ، لقد قلنا باطلاً وكذباً وبهتاناً، والشطط في اللغة: مجاوزة الحد، والبعد عن الحق. والمعنى: لقد قلنا إذن قولاً شططاً. وهذا يدل على أنهم دُعوا لعبادة الأصنام، ولامهم الملك على ترك عبادتها"[1]

وهذه الآية مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، وقد، والقسم الذي دَّلت عليه اللام، وهذه المؤكدات تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية، وأن الله ﷻ ثبت قلوبهم ليتمكنوا وهم نفر قلائل من مواجهة أمة بأسرها، فالحق لا يُرف بقلو ولا كثرة، فالزم الحق ولو كنت لوحدك، **قال عبد الله بن مسعود** ﷺ: "الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك"[2]. [3]

"فالله ﷻ قوى قلوب أصحاب الكهف ليحتملوا ما يلاقونه من أذى في سبيله، وقد وقفوا وقفة رجولية عظيمة، أعلنوا فيها إيمانهم بالله ﷻ، وإقرارهم له ﷻ بالربوبية، وإفراده وحده بالعبادة؛ فهو رب السماوات والأرض، ولا يستحق العبادة أحد سواه، ومن يقل غير هذا فهو ظالم وقوله باطل بعيد عن الحق"[4]

قد يخونك قلبك أثناء سيرك، فتتعثر في طريق الحق، وقد يتسرب نور الإيمان من قلبك فيظلم، وما لم يربط الله ﷻ على قلبك برباط التثبيت، فلا أمل لك في الثبات، فلا تغتر كثيراً بصلاح قلبك، فما سُمِّي القلب قلباً إلا من تقلبه، واجعل خوفك من الزلل أعظم حافز لك على الأخذ بأسباب الثبات، والربط على

---

[1] التفسير المنير (219/15)
[2] الرد على البردة ص 45، الباعث على إنكار البدع والحوادث ص 22
[3] أنوار النجاة في سورة الكهف/ خالد أبو شادي ص 29
[4] التفسير المنهجي (17/6)

القلوب تصوير لقوة الإيمان، وكأن الله ﷻ أودع الإيمان في قلوبهم وربط عليه برباط محكم، فلا سبيل لخروجه منها أو تزلزله.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحن الله ﷻ قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر كريم"[1].

[1] تفسير ابن كثير (7/ 368)، مسند الفاروق لابن كثير (605/2).

الآية الخامسة عشر: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ ﴾ الكهف: ١٥

"أنكر الفتية المؤمنون على قومهم عبادة آلهة غير الله ﷻ، وهم يستطيعون أن يأتوا بأي دليل على استحقاق هذه الأصنام للعبادة، فما من أحد أعظم ظلماً لنفسه ممن افترى على الله ﷻ الكذب بنسبة الشريك إليه ﷻ"[1]

قال أصحاب الكهف عن قومهم الذين كانوا في زمان دقيانوس يعبدون الأصنام: هلا يأتون بحجة بينة على صحة ما يفعلون من عبادة تلك الآلهة الباطلة المزعومة، وهلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ أي لا أحد أشد ظلماً من افتراء الكذب على الله ﷻ، ونسبة الشريك إليه، فهم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك. وكان من لطف الله ﷻ بهم أن ملكهم بعد أن هددهم وتوعدهم، أمهلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، فوجدوها فرصة مواتية، وهربوا فراراً بدينهم من الفتنة"[2]

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "أيها الناس من سئل عن علم يعلمه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل: الله أعلم، فإن العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم"[3].

---

[1] التفسير المنهجي (17/6)

[2] التفسير المنير (220/15)

[3] جامع بيان العلم وفضله (832/2)، الضياء اللامع من الخطب الجوامع (323/2).

سئل الإمام الشعبي عن مسألة فقال: لا أحسنها، فقال له أصحابه: قد استحيينا لك، فقال: لكن الملائكة لم تستحِ حين قالت: لا علم لنا إلا ما علمتنا."[1]

قال ابن كثير: "وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفرَّ العبد منهم خوفاً على دينه، عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شَعَفَ الجبال، ومواقع القَطْر، يفرّ بدينه من الفتن"[2]، ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجُمَع"[3]

كل قول ليس عليه دليل مردود، فهلا أقاموا بينة على كون أصنامهم التي يعبدون آلهة، وهي دعوة لتحكيم العقل الذي وهبنا الله ﷻ إياه، وعدم التسليم للخرافات والأوهام.

قال الزمخشري: "هو دليل على فساد التقليد، وأنه لابد في الدين من حجة حتى يصح ويثبت افترى على الله ﷻ كذباً بنسبة الشريك إليه"[4]

قال عمر بن الخطاب ﷺ: " ثلاث يصفين عليك من ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحسن أسمائه إليه"[5].

---

[1] الضياء اللامع من الخطب الجوامع (323/2).
[2] صحيح البخاري (9/ 53).
[3] تفسير ابن كثير (128/5).
[4] الكشاف للزمخشري (707/2).
[5] شعب الإيمان (104/9).

الآية السادسة عشر: ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ﴾ الكهف: ١٦

"بعد أن أعلن الفتية عن معتقدهم لقومهم مظهرين دينهم، خرجوا قارين بدينهم، فقال بعضهم للآخرين منهم: بما أنكم اعتزلتم قومكم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله ﷻ، فأووا إلى الكهف، وهو كهف معلوم لديهم، لعلهم كانوا يجتمعون فيه يعبدون الله ﷻ خفية عن قومهم، فإنكم إن فعلتم ذلك، ينشر لكم ربكم ﷻ من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً، وكذلك فعلوا، فقد توجَّهوا إلى الكهف ليقيموا فيه، راجين أن يبسط الله ﷻ عليهم رحمته، فينجيهم من أذى قومهم، ويهيء لهم ما ينتفعون به في أمور معاشهم، وهذا الموقف منهم يدل على ثقة عظيمة بالله ﷻ، وقوة في التوكل عليه، فقد علموا أن اعتزالهم قومهم في الكهف سيقابله عطاء من الله ﷻ لهم، وأن وجودهم في ذلك المكان الخالي من وسائل العيش لا يمنع من وصول رحمة الله ﷻ الواسعة إليهم، فهم في الظاهر لجؤوا إلى مكان ضيق، ولنهم في الحقيقة كانوا متمتعين برحمة الله ﷻ الواسعة، الفسيحة التي نشرها وبسطها عليهم"[1]

يقول أبو حيان: " ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ ﴾ خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم والاعتزال يشمل مفارقة أوطان قومهم ومعتقداتهم فهو اعتزال جسماني وقلبي، ﴿ وَمَا يَعۡبُدُونَ ﴾ يعني: وإذا

[1] التفسير المنهجي (17/6)

اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم، ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ استثناء متصل إن كان قومهم يعبدون الله ﷻ مع آلهتهم، لاندراج لفظ الجلالة في قوله ﴿ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ﴾ وذكر أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ، ويعبدون معه آلهة، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم يعتزلوا عبادة الله ﷻ، ومنقطع إن كانوا لا يعرفون الله ﷻ ولا يعبدونه لعدم اندراجه في معبوداتهم، وقيل: ﴿ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ كلام معترض إخبار من الله ﷻ عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله ﷻ، ﴿ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ ﴾ أي اجعلوه مأوى لكم تقيمون فيه وتأوون أليه، فهو ﷻ سيبسط علينا رحمته ويهيء لنا ما نرتفق به في أمر عيشنا"[1]

يقول الزمخشري: "إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله ﷻ، وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم، وإما أن يخبرهم به نبيٌّ في عصرهم، وإما أن يكون بعضهم نبياً"[2].

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "واذكروا يا أهل الكهف ذلك الخطاب الذي صدر من بعضكم لبعض حينما صممتم على الفرار بدينكم فاعتزلتم قومكم وفارقتموهم عزلة مادية بالمفارقة بالأبدان والمقر والمقام، وعزلة معنوية بمخالفتهم في دينكم واعتزالكم معبوديهم غير الله ﷻ وحده، وفارقوا قومكم جسدياً، والجؤوا إلى الكهف الغار الواسع في الجبل بعد فراقهم روحياً, وأخلصوا العبادة لله ﷻ في مكان

[1] البحر المحيط (7/ 150).
[2] الكشاف (707/2).

خال بعيد عن أهل الشرك، فإن فعلتم ذلك يبسط الله ﷻ عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، ويسهل لكم من أمركم مرفقاً، أي أمراً ترتفقون به وتنتفعون"[1].

مفارقة الأبدان لأماكن العصيان لون من الإنكار، وراحة لقلوب الأبرار، وصيانة لها من التعلق بالأوزار، واعتزال العصاة ليس سببه كراهية ذواتهم بل كراهة أعمالهم، فإن فارقوا الذنب، فهم إخواننا، ويبقى المؤمن في عزلة إن كان بقاؤه بينهم سبباً لفتنته عن دينه، وأما إذا استطاع أن يأمرهم وينهاهم، فلا يعتزلهم، قال رسول الله ﷺ: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"[2].

فهؤلاء الفتية كانوا في سعادة رغماً أنهم في كهف، وقومهم في شقاء رغماً أنهم في القصور، سعادتك من داخلك لا من خارجك.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وإذا عرض لك أمران: أحدهما لله ﷻ والآخر للدنيا، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا، فأن الدنيا تنفد والآخرة تبقى"[3].

---

[1] التفسير المنير (15/ 220)

[2] المعجم الكبير للطبراني (113/13).

[3] البيان والتبين (201/2).

الآية السابعة عشر: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ ﴾ الكهف: ١٧

"تضمنت هذه الآية بعض ما أنعم الله ﷻ به على أصحاب الكهف من العناية والرعاية، بأن حفظ أجسادهم من البلى بعد أن أنامهم، وذلك بأن جعل الشمس كلما طلعت أو غربت تميل عنهم كي لا تؤثر فيه أشعتها بقدرته ﷻ، وهذا من خوارق العادات.

كانت الشمس عند طلوعها تميل عنهم إل جهة اليمين كي لا يؤذيهم شعاعها المباشر، كما كانت تميل عنهم كذلك إذا غربت إلى جهة الشمال. وهذا الميل للشمس عنهم حالة شروقها وغروبها عناية من الله ﷻ لهم، وقد كانوا في متسع من الكهف، ولا ينقطع عنهم الهواء. وهذا الذي حصل مع الفتية في نومهم دليل على قدرة الله ﷻ الدالة على عظمته وتصرفه في خلقه، ولا ينتفع بآيات الله ﷻ إلا من وفقه الله ﷻ للهداية، ومن لم يوفقه للهداية فلا ولي له ولا ينصره، ولا يمكن أن يجد مرشداً وهادياً يدله على الخير"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ ﴾ أي وترى يا محمد أو كل واحد يصلح للخطاب الشمس حين طلوعها تميل عن

[1] التفسير المنهجي (6/ 20)

كهفه جهة اليمين، بأن تقلص شعاعها بارتفاعها، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، وتراها عند الغروب تبتعد عنهم وتتركهم ولا تقربهم وتعدل عنهم جهة الشمال، والحال أنهم في متسع من الكهف ووسطه، فيأتيهم الهواء بارداً لطيفاً.

وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقاً، بل الإخبار بكون الكهف في مكان لا تؤثر فيه الشمس أثناء طلوعها وغروبها، أي إنهم طوال نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس، لولا أن الله ﷻ يحجبها عنهم.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي إن بقاء هؤلاء الفتية في الكهف سنين عديدة وما صنعه الله ﷻ بهم من تنحية الشمس عنهم عند الطلوع والغروب، بانعكاس أشعتها وتقليص وهجها عنهم، آية من آيات الله ﷻ العجيبة الدالة على كمال قدرته وسعة علمه، وعلى أنه ﷻ يصون المخلصين من عباده، وأن التوحيد دين الحق، وأن عبادة الأصنام والأوثان ضلال وشرك وزيغ، وأن صون أهل الكهف بلطف من الله ﷻ وعناية منه.

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ أي من يوفقه الله ﷻ للاهتداء بآياته وحججه، ويدله دلالة مؤدية إلى الحق، ويوفقه إلى ما يحبه ويرضاه، كأهل الكهف، فهو المهتدي إلى طريق الحق، الفائز بالحظ الأوفر في الدارين"[1]

[1] التفسير المنير (222/15)

والمراد من ذلك إما الثناء على أصحاب الكهف والشهادة لهم بإصابة المطلوب، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة، ولكن السعيد من وفقه الله ﷻ للتأمل بها والاستبصار بها والاهتداء بها"[1]

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أي ومن يضلل الله ﷻ بأن لم يوفقه للاهتداء بآياته، لسوء اختياره واستعداده، وتوجيه رأيه إلى جادة الانحراف، فلن تجد له أبداً حليفاً أو ناصراً معيناً يرشده ويهديه إلى الخير وطريق الصلاح في الدنيا والآخرة، ولا هادي له، كأمثال الكفرة منكري البعث؛ لأن التوفيق والخذلان بيد الله ﷻ، يوفق من يشاء ويخذل من يشاء.

وتفويض الهداية والإضلال إلى الله ﷻ يخفف من معاناة النبي ﷺ مع قومه، ويسرِّي عنه حزنه وألمه على إعراضهم عن قبول دعوته[2].

يقول الشوكاني: "شرع ﷻ في بيان حالهم، بعد أن أووا إلى الكهف، أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين أي يمين الكهف، وإذا غربت تمر شمال الكهف لا تصيبه، بل تعدل عن سمته إلى الجهتين، والفجوة المكان المتسع، وهناك قولان:

الأول: أنهم مع كونهم في مكان منفتح انفتاحاً واسعاً في ظل جميع نهارهم، لا تصيبهم الشمس في طلوعها، ولا في غروبها؛ لأن الله ﷻ حجبها عنهم.

الثاني: أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، وإذا غربت كانت عن يساره، ويؤيد القول الأول.

---

[1] تفسير الألوسي (213/8)

[2] التفسير المنير (223/15)

فإن صرف الشمس عنهم مع توجه الفجوة إلى مكان تصل إليه عادة أنسب بمعنى مونها آية، ويؤيده أيضاً إطلاق الفجوة وعدم تقييدها بكونها إلى جهة كذا، ثم أثنى ﷻ عليهم بقوله ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ ﴾ أي إلى الحق ﴿ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح، ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أي ناصراً يهديه إلى الحق كدقيانوس وأصحابه"[1].

من أثر الله ﷻ في أمره ونهيه آثره الله ﷻ في جميع شأنه، وهذه كرامة لأصحاب الكهف جزاء تضحيتهم في سبيل الله ﷻ، فقد خرق لهم النظام الكوني، فكانت الشمس إذا طلعت تميل عنهم يميناً وعند غروبها تميل عنهم شمالاً، فلا ينالهم حرها ولا تؤذي أبدانهم، بينما هم نائمون في فجوة من الكهف أي متسع منه، يطرقهم فيه الهواء والنسيم والعليل.

هدايتك ليست إحدى إنجازاتك، وطاعتك لربك ﷻ ليست سوى أحد آثار نعمة الله ﷻ عليك، فكثير من الناس أذكى منك وأكثر علماً، ومع هذا ضلوا طريق الحق، وفي هؤلاء قال ابن تيمية ﷺ: "أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء، وأعطوا فهوماً، وما أعطوا علوماً، وأعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأحقاف: ٢٦ [2]

[1] فتح القدير للشوكاني (3/326- 327).
[2] مجموع الفتاوي لابن تيمية (5/119).

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "إن لله ﷻ عباداً، يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره، رغبوا فرغبوا، ورهبوا فرهبوا، خافوا فلا يأمنون، أبصروا من اليقين ما لم يعاينوا فخلطوا بما لم يزايلوا، أخلصهم الخوف، فكانوا يهجرون ما ينقطع عنهم، لما يبقى لهم، الحياة عليهم نعمة، والموت لهم كرامة"[1].

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (55/1).

الآية الثامنة عشر: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ الكهف: ١٨

تتحدث هذه الآية عن معجزة أخرى امتن الله ﷻ بها على أصحاب الكهف، وذلك بحفظ أجسادهم من البلى والتغير، يبث الحركة في أجسادهم، وبث الرعب والخوف في قلب كل من يراهم.

"تظنهم أيها الناظر إليهم مستيقظين مع أنهم نائمون مستغرقون في نومهم، ويتقلبون يميناً وشمالاً لئلا تفسد أجسامهم من الأرض مع طول المدة، وكلبهم ماد يديه، جالس في فناء الكهف، وهي جلسة توثب واستعداد كأنه يحرسهم، وهو في الحقيقة نائم مثلهم، ولو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت هارباً خوفاً منهم، وذلك لما أوقع الله ﷻ عليهم من الهيبة، وهذه آية أخرى لهم لئلا يقترب منهم أحد"[1]

قال الصابوني: "لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لتفتح عيونهم، وتقلبهم والحال أنهم نيام، ونقلبهم من جانب إلى جانب لئلا تأكل الأرض أجسامهم، وكلبهم الذي تبعهم باسط يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم، ولو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هرباً رعباً منهم، وذلك لما ألبسهم الله ﷻ من الهيبة، فرؤيتهم تثير الرعب؛ إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ، يتقلبون ولا يستيقظون."[2]

---

[1] التفسير المنهجي (20/6)

[2] صفوة التفاسير (2/ 171).

قال ابن القيم رضي الله عنه: "الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيراً من الأيقاظ في الحس نياماً في الواقع، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم، فإن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن"[1]

فإذا كنت مع الله عز وجل، فستشملك رعاية الله عز وجل وعنايته في كل لحظة حتى في تقلبك أثناء النوم، والأخذ بالأسباب واجب، **قال السعدي**: "وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم؛ لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله عز وجل أن قلبهم على جنوبهم يميناً وشمالاً بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله سبحانه وتعالى قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنه سبحانه وتعالى حكيم أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها."[2]

فلا تتحرك ذرة في هذا الكون إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، حتى تقلبك أثناء نومك لا يكون إلا بإذنه سبحانه وتعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ الأنعام: ٥٩

كلب حرس الصالحين وليس منهم، فخلد الله سبحانه وتعالى ذكره في كتابه العزيز، والرسالة التي تفهم من ذلك: سر مع الصالحين وإن لم تكن منهم، رفع الله سبحانه وتعالى ذكر الكلب بصحبة أهل الحق، وفحوى الرسالة ومراد الآية ليس هناك ما يرفع أقدار الخلق مثل اتباع الحق، ولا يهوي بقدر العبد مثل اتباع أهل الباطل، وإن قام الليل وصام

---

[1] مدارج السالكين (3/ 266).
[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 472).

النهار، **قال القشيري**: "كلب خطا مع أحبائه خطوات، فإلى يوم القيامة يقول الصبيان بل يقول الحق ﷻ: ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ فهل ترى مسلماً يصحب أولياء الله ﷻ من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يرده الله ﷻ يوم القيامة خائباً؟ إنه لا يفعل ذلك"[1].

ويقصد بالوصيد الباب، **قال ابن كثير**: "وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب كما ورد في الصحيح"[2].

ألطاف الله ﷻ تحمي أوليائه فقد حف الله ﷻ هؤلاء الفتية بالرعب واكتنفهم بالهيبة والوقار، **قال ابن كثير**: "لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء ﷻ فيهم"[3]

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا تكلم فيما لا يعنيك، واعرف عدوك، وأحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله ﷻ، ولا تمشي مع الفاجر، فيعلمك من فجوره، ولا تطلعه على سرّك، ولا تشاور في أمرك إلا اللذين يخشون الله ﷻ"[4]

---

[1] تفسير القشيري (384/2).
[2] تفسير ابن كثير (144/5).
[3] تفسير ابن كثير (145/5).
[4] صفة الصفوة (108/1).

الآية التاسعة عشر: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ الكهف: ١٩

بعد أن ألقى الله ﷻ النوم على أهل الكهف مدة ثلاثمائة سنة وتسع، أيقظهم من هذا النوم العميق، وحين استيقاظهم شعروا بجوع شديد، فبعثوا أحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً وزودوه بما معهم من نقود فضية.

قال الزمخشري: "وكما أنمناهم تلك النومة، كذلك بعثناهم إذكاراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً؛ ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله ﷻ بهم، فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ﷻ، ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله ﷻ به عليهم، وكُرّموا به.

﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ جواب مبني على غالب الظن، ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ إنكار عليهم من بعضهم، وأن الله ﷻ أعلم بمدة لبثهم، كأن هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله ﷻ أن المدة متطاولة، وأن مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله ﷻ، وروي أنهم دخلوا الكهف غدوة، وكان انتباههم بعد الزوال، فظنوا أنهم في يومهم، ثم ردوا العلم إلى الله ﷻ، وبعثوا أحدهم بنقودهم

الفضية ليشتري لهم أحلّ وأطيب، وأكثر وأرخص طعاماً، وليتكلف اللطف والنيقة[1] فيما يباشره من أمر المبايعة، حتى لا يُغبن، أو أمر التخفي حتى لا يُعرف، ولا يفعلنّ ما يؤدي من غير قصد منه إلى الشعور بهم"[2].

"كما أنمناهم نوماً طويلاً أيقظناهم، فسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم، فقال بعضهم: لبثنا يوماً أو بعض يوم، بناء على غالب ظنهم؛ لأن النائم لا يحصي مدة نومه، ولذلك عادوا فأحالوا العلم بمدة نومهم إلى الله ﷻ، ولعلهم شعروا بشدة الجوع فطلبوا من أحدهم أن يذهب إلى المدينة، ويأخذ معه القطع النقدية الفضية التي معهم، ويختار من طعامها الحلال الجيد الطيب فيأتيهم بقوت منه، وأوصوه أن يحتاط حتى لا ينكشف أمرهم، بأن يكون لطيفاً في المعاملة مع من يلقاه من أهل المدينة"[3].

يقول وهبي الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي كما زدناهم هدى وأنمناهم، وحفظنا أجسادهم من البلى والفناء، وأبقيناهم أحياء من غير أكل ولا شرب مدة طويلة من الزمان، ونقلبهم، فكذلك بعثناهم، أي أحييناهم من تلك النومة التي تشبه الموت، لنعرفهم مدى قدرتنا وعجيب فعلنا في الناس، وليتبصروا في أمرهم وليتساءلوا بينهم، والام هنا لام العاقبة أو الصيرورة، فقال قائل منهم: كم لبثوا، أي كم رقدتم في نومكم؛ لإحساسهم بطول الرقاد، ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أي أجاب بعضهم قائلاً: لبثنا في تقديرنا يوماً كاملاً أو جزءاً

[1] النيقة: من التنوق، تنوق فلان في مطعمه وملبسه، إذا تجود وبالغ (لسان العرب 4582/6)
[2] الكشاف للزمخشري (709/2)
[3] التفسير المنهجي (20/6- 21)

من اليوم؛ لأنه كان دخولهم في أول النهار، واستيقاظهم في آخر النهار، لذا استدركوا فقالوا: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أجاب بعض أخر: ربكم أعلم بأمركم، وبمقدار لبثكم، وهذا استشعار منهم وتردد بكثرة نومهم، لما رأوا حالهم متغيرة، أي فالله أعلم منكم وأنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وهذا أدب الإيمان اليقظ في الرد على جواب البعض الأول.

"ثم تذاكروا فيما بينهم وقرروا البحث في المهم من أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أي فأرسلوا أحدكم بدراهمكم أو فضتكم هذه التي استصحبوها معهم من منازلهم؛ لتغطية حوائجهم إلى المدينة وهي طرسوس أي مدينتكم التي خرجتم منها.

﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ ﴾ أي فليبصر أي الأطعمة أجود وأنفع وأطيب وأيسر سعراً، فليأتكم بمقدار مناسب منه.

﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أي وليكن لطيفاً رفيقاً في الطلب وفي خروجه ودخوله المدينة، وفي شرائه ولا يخبرن أو لا يعلمن أحداً من أهل المدينة بمكانكم"[1].

[1] التفسير المنير (15/224- 225).

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "تعلّموا العلم وعلّموه الناس، وتعلّموا الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلّمتم منه ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبارة العلماء فلا يقوم جهلكم بعلمكم"[1].

[1] شعب الإيمان (3/ 281).

الآية العشرون: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ الكهف: ٢٠

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي إن أصحاب دقيانوس الملك إن اطلعوا على مكانكم، يقتلوكم بالرجم بالحجارة، أو يجبروكم ويكرهوكم على العودة إلى دينهم دين الوثنية وعبادة الأصنام، وإن وافقتموهم على العود إلى ملتهم أو دينهم، فلا فلاح لكم أبداً في الدنيا والآخرة"[1].

"إن أصحاب الملك الظالم علموا أنه من الفتية الذين أووا إلى الكهف، واكتشفوا مكانهم فإنهم سيقتلونهم رجماً بالحجارة، أو يجبرونهم على العودة إلى الدين الباطل الذي فروا منه، وإن حصل ذلك منهم فلن يفلحوا أبداً، وقولهم هذا كان بناء على ظنهم أن أهل المدينة الذين فروا منهم ما يزالون موجودين"[2].

والرجم يعني القتل بوحشية، وهذا يدل على شدة عداوة قومهم لهم، وأن هذه العداوة ليست مع الملك وحده، فالرجم لا يقوم به إلا كثير من الناس، ونتيجة ظهور أهل الكفر على أهل الإسلام إما القتل أو الردة، وهو ما حدث ويحدث وسيحدث في كل زمان، ومع قوة إيمان أصحاب الكهف لكن هناك خوفاً عليهم أشد من خوف القتل ألا وهو ضياع الدين.

[1] التفسير المنير (225/15).
[2] التفسير المنهجي (21/6)

قال ابن الجوزي رحمه الله: "الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه عز وجل، ولا يدري متى يستدعى.. وإني رأيت خلقاً كثيراً غرهم الشباب، ونسوا فقد الأقران، وألهاهم طول الأمل.. وربما قال العالم المحض لنفسه: أشتغل بالعلم اليوم ثم أعمل به غداً، فيتساهل في الزلل بحجة الراحة، ويؤخر الأهبة لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غيبة أو سماعها، ومن كسب شبهة يأمل أن يمحوها بالورع.. وينسى أن الموت قد يبغت.. فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه، فإن بغتة الموت رؤى مستعداً، وإن نال الأمل ازداد خيراً"[1]

[1] صيد الخاطر (1/ 28).

الآية الحادية والعشرون: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ الكهف: ٢١

"أي دللنا الناس عليهم، والطريقة التي دل الله ﷻ بها الناس على أهل الكهف مفهومة من النص، فإن الذي ذهب يشتري لأصحابه طعاماً لابد وأن أمره قد كشف، فإنه أنكر الناس، وأنكره الناس، فقد تغير الناس عليه، واستغرب الناس حاله، وإنما أعلم الله ﷻ في ذلك الزمان بأهل الكهف وقصتهم ليعلموا أن البعث بعد الموت حق، فإن نوم هؤلاء الفتية لسنوات طويلة كالموت، وليعلم الناس أن الساعة لا شك في حصولها، وأن الله ﷻ يبعث من عباده من قبورهم حق.

وقد تنازع أهل البلدة في شأن هؤلاء الفتية، واختلفوا فيهم، وانقسموا إلى فريقين: فريق يرى إقامة بنيان على الكهف، وفريق ثانٍ يرى بناء مسجد عليه، ليكون مكان صلاة وطاعة لله ﷻ، وانتصر أصحاب هذا الرأي، وغلبوا الفريق الآخر"[1]

يقول وهبي الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي وكما أنمناهم ثم بعثناهم، أطلعنا الناس عليهم وعلى أحوالهم، وهم أولئك الذين كان لديهم شك في قدرة الله ﷻ على إحياء الموتى، وفي البعث، وفي أمر يوم القيامة، فبعث الله ﷻ أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك، وليدركوا ويعلموا أن وعد الله ﷻ بالبعث حق وصدق

[1] التفسير المنهجي (6/ 24).

وثابت، وأن حدوث الساعة أي القيامة أمر لا شك فيه، فمن شاهد حال أهل الكهف علم صحة الخبر وصدق وعد الله ﷻ بالبعث؛ لأن حالهم في نومتهم، وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث، **وسمي إعلام الناس بهم إعثاراً؛ لأن من غفل عن شيء ثم عثر به، نظر إليه وعرفه، فكان الإعثار سبباً في العلم، والمعنى: أعثرنا عليهم حين يتنازعون بينهم.**

﴿ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أي أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان حين كان بعضهم مع بعض في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، ومن مؤمن بها وكافر، فجعل اطلاعهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم، وفرح الملك وشعبة بآية الله ﷻ على البعث، وزال أمر الخلاف في أمر القيامة.

﴿ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ﴾ أي انقسم القوم في شأن أهل الكهف حين توفاهم الله ﷻ فريقين: فريق قيل هم الكفار منهم قالوا: نسد عليهم باب كهفهم، ونتركهم على حالهم؛ فإنهم كانوا على ديننا، فتتخذ عليهم بنياناً، أي على باب كهفهم، لئلا يدخل إليهم الناس، ضناً بتربتهم، ومحافظة عليها، ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ جملة معترضة، أي أعلم بشأنهم للرد على المتنازعين في عقيدتهم وبيان أنسابهم وأسمائهم ومدة لبثهم، وفريق آخر تغلبوا على الفريق الأول بالرأي وهم المسلمون وملكهم قالوا ـ وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم ـ : لنتخذن على باب كهفهم مسجداً يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم"[1].

[1] التفسير المنير (15/225- 226)

قال ابن كثير: "والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: "لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[1][2]

لولا الله ﷻ ما عرفنا عنهم شيئاً، ولا انتفعنا بقصتهم، فالحمد لله على نعمة الجلية والخفية.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾، فتارة فقر وتارة غنى، وتارة عز وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي وتارة يشمت الأعادي.. والعاقل من لازم أصلاً على كل حال: وهو تقوى الله ﷻ، والمنكر من عزته لذة حصلت مع عدم التقوى فإنها ستزول وتخليه خاسراً"[3].

[1] صحيح البخاري (2/ 102)، صحيح مسلم (1/ 376)

[2] تفسير ابن كثير (147/5).

[3] صيد الخاطر (1/ 137).

الآية الثانية والعشرون: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ الكهف: ٢٢

يقول وهبة الزحيلي: "إن الناس بعدئذ اختلفوا في عددهم، وهم من خاض في قصتهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين، إنهم سألوا رسول الله ﷺ عنهم، فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه، فنزلت الآية إخباراً ببيان عددهم وأن المصيب منهم من يقول: ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

بعضهم قال: هم ﴿ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ وآخرون قالوا: ﴿ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، وهم في هذا يقولون: ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي قولاً بلا علم، وإنما هو مجرد ظن وتخمين، لا دليل عليه، ولا يقين معه، بدليل اتباع القولين الأولين بقوله: ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾، وقال جماعة آخرون: إنهم ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، ولما حكى ﷻ هذا القول، وسكت عليه أو قرره، دل على صحته، وأنه هو الواقع في الأمر نفسه.

قل يا محمد: ربي أعلم بعددهم، ما يعلمهم إلا قليل من الناس، وأكثر أهل الكتاب الذين ذكروا أعدادهم على ظن وتخمين. وقوله: ﴿ رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ إرشاد إلى

أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله ﷻ؛ إذ لا داعي إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم.

المهم في الأمر ليس معرفة العدد، وإنما المهم الاعتبار بالقصة، والانتفاع بما دلت عليه من إثبات قدرة الله ﷻ على البعث والإعادة.

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدلاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله ﷻ إليك فحسب، ولا تزيد من غير تجهيل لهم، ولا تعنيف في الرد عليهم.

﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي لا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت؛ لأن ذلك خلاف ما وصيت به في المدارة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد؛ لأن الله ﷻ قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم"[1].

تبين هذه الآية أن الخوض في هذا الأمر مما لا فائدة فيه، وأن الحكمة من القصة غير هذا الأمر، فليوكل أمر عددهم وتفاصيل حادثتهم إلى الله ﷻ، فهو العالم بكل شيء، ولا يعلم على ضبط عددهم إلا قليل من الناس، ولكن الحكمة من القصة الاعتبار بما فيها من دلائل على قدرة الله ﷻ، فلا تهتم كثيراً في الشكليات، وركز دائماً على جوهر الموضوع وأصله، واحذر الخلاف العقيم فيما لا فائدة منه.

قال ابن كثير: "اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام، وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه ﷻ أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين،

[1] التفسير المنير (15/226- 228).

وسكت عن الثالث، فدل على صحته، أي القول الثالث إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف، وأن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف في ما لا فائدة تحته"[1]

قال ابن الجوزي رحمه الله: "اعلم أن الطريق الموصلة إلى الحق ﷻ ليست مما يقطع بالأقدام، وإنما يقطع بالقلوب"[2]

[1] تفسير ابن كثير (9/1).
[2] صيد الخاطر (1/ 367).

الآيتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ الكهف: ٢٣ - ٢٤

يخاطب الله ﷻ في هاتين الآيتين نبيه ﷺ موجهاً إياه أن يستثني عند كل أمر يهم القيام به، وأن يكون على اتصال به، وأن يطلب منه ﷻ المعونة والهداية لتأييده وبيان صدقه.

يقول البيضاوي: "نهي تأديب من الله ﷻ لنبيه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وأصحاب الكهف، وذو القرنين، فسألوه فقال: ائتوني غداً أخبركم، ولم يستثنٍ، فأبطأ عليه الوحي بضعة عشر يوماً حتى شق عليه وكذبته قريش، والاستثناء من النهي، أي: ولا تقولنّ لأجل شيء تعزم عليه إني فاعله فيما يستقبل إلا بأن يشاء الله ﷻ، أي إلا ملتبساً بمشيئته قائلاً إن شاء الله، أو إلا وقت أن يشاء الله ﷻ أن تقوله، بمعنى أن يأذن لك فيه، ولا يجوز تعليقه بفاعل؛ لأن استثناء اقتران المشيئة بالفعل غير سديد، واستثناء اعتراضها دونه لا يناسب النهي"[1]

واذكر مشيئة ربك ﷻ وقل إن شاء الله كما روي أنه لما نزل قال ﷺ: "إن شاء الله"، ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا فرط منك نسيان لذلك ثم تذكرته، ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة في الحث عليه، واذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك على التدارك، أو اذكره إذا

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (3/ 278).

اعتراك النسيان ليذكرك المنسي، ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ ﴾ يدلني ﴿ لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ لأقرب رشداً، وأظهر دلالة على أني نبي من نبأ أصحاب الكهف، وقد هداه أعظم من ذلك كقصص الأنبياء المتباعدة عنه أيامهم والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة في الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة، ولأقرب رشداً أو أدنى خيراً من المنسيّ"[1]

يقول وهبة الزحيلي: "﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ أي لا تقولن أيها الرسول لأجل شيء عزمت على فعله في المستقبل: أني سأفعل ذلك غداً إلا بأن تقرنه بمشيئة الله ﷻ، فتقول: إن شاء الله، فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له ـ وفي رواية قال له الملَك ـ : قل: إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهنَّ، فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله، لم يحنث وكان دركاً لحاجته"، وفي رواية: "ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون"[2].

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أي واذكر مشيئة الله ﷻ وقل: إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك، والمعنى إذا نسيت كلمة الاستثناء، ثم تنبهت فتداركها بالذكر، سواء طال الفصل أو قصر، عن ابن عباس رضي الله عنهما: "ولو بعد سنة ما لم

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (3/ 278).
[2] سنن الترمذي (4/ 109).

تحنث"، والاستثناء بالمشيئة عند عامة الفقهاء لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً.

أوضح ابن جرير قول ابن عباس: "وهو أنه إذا نسي أن يقول في كلامه أو في حلفه: إن شاء الله، وتذكر ولو بعد سنة، فالسُّنَّةُ له أن يقول ذلك؛ ليكون آتياً بسُنة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الحنث، لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة".

﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أي وقل يا محمد: عسى أن يوفقني ربي لشيء آخر بدل المنسي أو أقرب خيراً ومنفعة، فإذا سئلت عن شي لا تعلمه، فاسأل الله ﷻ فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك"[1].

فهذا توجيه للناس أن لا يجزم أحدهم على فعل شيء فيما يقدم من الزمان إلا أن يقرن عزمه هذا بمشيئة الله ﷻ فيقول: إن شاء الله، وإذا نسي قول هذه العبارة حال عزمه على فعل الشيء، فليقلها حين يتذكر ذلك، وفي هذا توجيه إرشاد لكل مسلم أن يجعله قلبه متعلقاً بالله ﷻ في كل حال، وأن يرد علم الغيب وحوادث المستقبل إلى مشيئة الله ﷻ، الذي يعلم ما كان وما يكون، وفيه إرشاد وتوجيه لكل مسلم أن يدعو الله ﷻ أن يختار له الأمر الأقرب إلى الرشد والأحسن لحاله، فإنه ﷻ العالم بما يصلح له أكثر من نفسه، وعلى المسلم أن يتطلع دائماً إلى الأمر المقرب من الله ﷻ أكثر، والأحسن له في دينه ودنياه.

[1] التفسير المنير (15/ 228- 229).

قال الحسن البصري رحمه الله: "رحم الله امرءاً نظر ففكر، وفكر فاعتبر فأبصر، وأبصر فصبر لقد أبصر أقوام ثم لم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم، فلم يدركوا ما طلبوا، ولا رجعوا إلى ما فارقوا، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين"[1].

[1] الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار (284/2).

الآيتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦ ﴾ الكهف: ٢٥ - ٢٦

"أخبر الله ﷻ رسوله ﷺ عن مقدار لبث أهل الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ﷻ فقال:

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ أي أنهم أقاموا في الكهف مقدار ثلاث مئة سنة وتسع سنوات هلالية، وهي ثلاث مئة سنة شمسية، فإن تفاوت ما بين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فهذا قال بعد الثلاث مئة: ﴿ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ وأكد ذلك بالإخبار بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أي إذا سئلت عن مدة لبثهم، وليس عندك علم في ذلك من الله ﷻ، فقل في مثل هذا: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومن أطلعه عليه من خلقه، فلا تتعجل بالأخبار ما لم يكن عندك دليل عليها، والحق ما أخبرك به، لا ما يقولونه؛ إذ له غيب السماوات والأرض، وهو العالم بكل شيء، وأعلم الذين اختلفوا في مقدار لبثهم.

وبما أن الله ﷻ أخبر عن مدة لبثهم، فهو الحق الذي لا شك فيه، وفائدة تأخير إيراد هذه الجملة الدلالة على أنهم تنازعوا في مدة اللبث، كما تنازعوا في عددهم،

وجاء هذا التذييل هنا كالتذييل المتقدم في حكاية عددهم: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ "[1]

يقول الطبرسي: " فالمراد بقوله ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ بعد بيان مدة لبثهم أصحاب الكهف إبطال قول أهل الكتاب، واختلافهم في مدة لبثهم، فتقديره: قل يا محمد الله ﷻ أعلم بمدة لبثهم، وقد أخبر بها فخذوا بما أخبر الله ﷻ ودعوا قول أهل الكتاب، فهو أعلم بذلك منهم، ولا يغيب عن الله ﷻ شيء فيعلم ما غاب في السماوات والأرض عن إدراك العباد."[2]

الخلاصة: إن الخبر اليقين في بيان عدد أهل الكهف ومدة لبثهم هو من عند الله ﷻ؛ أنه أعلم بالأشياء وبالحقائق، وأما أقوال الناس فهي ظنون لا دليل عليها، وتستند إلى الشائعات، ولله ﷻ وحده علم ما غاب في شؤون السماوات والأرض، وخفي من أحوال أهلها.

﴿ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ ﴾ هذا من صيغ التعجب والمبالغة، أي إن الله ﷻ لبصير بهم، وذلك في معنى المبالغة في المدح والتعجب، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، أي ما أبصر الله ﷻ لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء، قال قتادة في هذه الصيغة: "فلا أحد أبصر من الله ﷻ ولا أسمع".

[1] التفسير المنير (15/ 229- 230).
[2] مجمع البيان (6/ 313)

يقول الطبرسي: " هذا لفظ التعجب، ومعناه: ما أبصره وأسمعه، أي ما أبصر الله ﷻ لكل مبصر، وما أسمعه لكل مسموع، فلا يخفى عليه شيء من ذلك، وإنما أخرجه مخرج التعجب على وجه التعظيم"[1].

﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ ﴾ أي ما للناس من دون الله ﷻ متولٍّ يلي أمورهم، وليس له وزير ولا نصير.

يقول الطبرسي: "وليس لأهل السماوات والأرض من دون الله ﷻ ناصر يتولى نصرتهم"[2]

﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أي إن الله ﷻ له الخلق والأمر، لا معقب لحكمه، ولا يشاركه في قضائه أحد من الناس، وليس له شريك ولا مشير"[3].

يقول الطبرسي: "ولا يشرك الله ﷻ في حكمه بما يُخبر به من الغيب أحداً، ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم الله ﷻ به"[4]

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾

يقول سعيد حوى: "هذا إخبار من الله ﷻ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ﷻ، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة، تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن

---

[1] مجمع البيان (6/ 313)
[2] مجمع البيان (6/ 313)
[3] التفسير المنير (15/ 250- 251)
[4] مجمع البيان (6/ 313)

تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين. فلهذا قال بعد الثلاثمائة وادادوا تسعاً"[1]

قال الحسن البصري رحمه الله: "من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره"[2]

[1] الأساس في التفسير (6/ 3174)

[2] إحياء علوم الدين (207/3).

الفقرة الثالثة

دواء فتنة الدين

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ الكهف: ٢٧ – ٣١

الآية السابعة والعشرون: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧ ﴾ الكهف: ٢٧

بعد بيان حقيقة حادثة الفتية أصحاب الكهف، توجه الخطاب الإلهي إلى رسول الله ﷺ مربياً ومؤدباً، فأمر الله ﷻ رسوله ﷺ في هذه الآية بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس، قائلاً له: واتل الكتاب الموحى به إليك، واتبع ما جاء فيه من أمر ونهي، فإنه لا مغير لكلمات ربك من وعد الطائعين ووعيد العصاة، ولا محرف ولا مزيل لها، فإن لم تعمل به، فوقعت في الوعيد، فلن تجد ملجأ ولا ولياً ناصراً من دون الله ﷻ"[1]

وتدل هذه الآية على عظيم منزلة القرآن الكريم، فإنه الكتاب المحفوظ من التبديل والتغيير والزيادة والنقصان، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ الحجر: ٩، وتلاوته عبادة وقربة من الله ﷻ، وهو دستور الأمة الباقي، ومنهاج حياتهم الدائم.

قال الإمام النووي: "يستحب لتالي القرآن إذا كان منفرداً أن يكون ختمه في الصلاة، ويستحب أن يكون ختمه أول الليل أو أول النهار"[2]، وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: "إذا وافق ختم القرآن أول الليل، صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإن وافق ختمه أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي"[3].

---

[1] التفسير المنير (15/ 241)

[2] التبيان في آداب حملة القرآن (63/1).

[3] سنن الدارمي (4/ 2184).

اقرأ كتاب ربك ﷻ لتكون معانيه وحقائقه ملازمة لك، مستقرة في قلبك، وإذا كان هذا أمر الله ﷻ إلى نبيه المعصوم ﷺ الذي لا سبيل إلى زيغ قلبه، فكيف بمن أحاطت به الشبهات وأسباب الزيغ من جميع الجهات؟!

وهذا التوجيه الأول: تلاوة القرآن والعمل بمقتضاه.

قال الحسن البصري ﷺ: "تفقّد الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة والقرآن والذكر، فإن وجدت ذلك فأمضي وأبشر، وإلا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه"[1].

[1] الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار (279/2).

الآية الثامنة والعشرون: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ الكهف: ٢٨

"هذا التوجيه الثاني وهو مجالسة الفقراء والمستضعفين، جالس الذين يذكرون الله ﷻ ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه ويدعونه في الصباح والمساء أي في كل وقت، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، يريدون وجهه أي طاعته ورضاه.

﴿ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ ﴾ أي ولا تجاوز بصرك ونفسك إلى غيرهم، فتطلب بدلهم أصحاب الثروة والنفوذ، والمقصود النهي عن احتقارهم لسوء حالهم وفقرهم، قال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية: "الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه"[1]

﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا ﴾ أي وإياك أن تطيع من وجدناه غافلاً، وشغل عن الدين وعبادة ربه ﷻ بالدنيا، وكان مسرفاً مفرطاً في أعماله وأفعاله غاية الإسراف والتفريط، متبعاً شهواته، وهو دليل على أن سبب البعد عنهم انشغالهم عن اتباع أمر الله ﷻ بمفاتن الدنيا وزينتها"[2]

[1] المعجم الأوسط للطبراني (8/ 357)
[2] التفسير المنير (242/15)

وأعظم علاج للغفلة ذكر الله ﷻ، لكن ليس أي ذكر، إنما ذكر القلب؛ لأن الغفلة مصدرها القلب، وليس من الحكمة أن تعالج القنوات، وتترك العين واصل الداء.

فهذه الآية تتحدث عن أمر الله ﷻ لرسوله ﷺ بالصبر على مجالسة فقراء المؤمنين المخلصين لله ﷻ، وألا يترك مجالستهم من أجل مجالسة ذوي الغنى والشرف.

قال الشنقيطي: " أمر الله ﷻ نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يصبر نفسه، أي يحبسها مع المؤمنين الذين يدعون ربهم ﷻ أول النهار وآخره مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه ﷻ، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين كعمار، وصهيب، وبلال، وابن مسعود ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النبي ﷺ أن يطردهم عنه، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين، وقد نهاه أن تتجاوز عيناه ضعفاء المؤمنين وفقراءهم بسبب رثاثة زيهم، محتقراً لهم طامحاً إلى أهل الغنى والجاه والشرف وما لديهم من زينة الحياة الدنيا بدلاً منهم، كما نهاه عن طاعة الغافل عن ذكر الله ﷻ المتبع لهواه، ومعنى اتباعه هواه: أنه يتبع ما تميل إليه نفسه الأمارة بالسوء وتهواه من الشر، كالكفر والمعاصي، وكانت أعماله سفهاً وضياعاً وتفريطاً"[1].

دلت الآية على استحباب العمل الصالح والدعاء في وقتي الغداة والعشيّ، ومن ذلك أذكار الصباح والمساء، فلذلك خصها الله ﷻ بالذكر، والواجب في الدعاء وسائر الأعمال والطاعات إخلاص النية لله ﷻ، فلا رياء ولا سمعة ولا طمع في غرض من أغراض الدنيا.

[1] أضواء البيان (3/ 263- 265).

وهذا التوجيه الثاني وهو مجالسة الفقراء والمستضعفين

قال الحسن البصري رضي الله عنه: "يا ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك"[1]

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (148/2).

الآية التاسعة والعشرون: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ الكهف: ٢٩

"بينت الآيات السابقة التوجيهات الإلهية لرسول الله ﷺ، وفي هذه الآيات بيان لتوجيه آخر له، وهو أن يقول الحق، وأن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق، وأنه من عند الله ﷻ، وهو معروض أمام المدعوين، وهم مخيرون بين اتباعه بالإيمان، وعدم اتباعه بالبقاء على الكفر، إلا أن رحمة الله ﷻ البالغة بعباده اقتضت منه ﷻ أن يبين لخلقه مصير كل من الفريقين، إقامة للحجة عليهم، وترغيباً في الإيمان.

فالذين كفروا بالله ﷻ قد ظلموا أنفسهم، وسيكون مصيرهم يوم القيامة النار، التي ستحيط بهم من كل جانب، كما يحيط السور والبناء بما فيه، فهي نار وجدرانها من نار، فلا يستطيعون الخروج منها، وحين يصيبهم العطش من شدة العذاب، ويستغيثون طالبين الغوث والشرب، يسقون من ماء قبيح منتن لا يطاق يشبه عكر الزيت، وقد بلغ درجة عالية من الحرارة فإذا اقترب من وجوههم ذابت من شدة الحرارة، ومع ذلك سيرغمون على شربه لتتقطع أمعاؤهم، كما قال ﷻ: ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ ﴾ محمد: ١٥، فهو شراب سيء قبيح، بل إن جهنم

أسوأ مكان إقامة، كلها عذاب، وأسوارها وشرابها وطعامها عذاب، وإطلاق المرتفق عليها، وهو مكان الاستراحة، للتهكم بأهلها، أعاذنا الله ﷻ منها برحمته"[1].

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذا الآية: "﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ أي قل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم ﷻ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، وهو النظام الأصلح للحياة، فمن شاء آمن به، ومن شاء كفر به، فأنا في غنى عنكم، ومن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم يحاسبكم ربكم ﷻ على أعمالكم.

وفي هذا تهديد ووعيد شديد، وهي تدل على أن الله ﷻ لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يضره كفر الكافرين، بل نفع الإيمان وضرر الكفر يعود على صاحبه فحسب.

ثم ذكر الله ﷻ نوع الوعيد على الكفر، والوعد على العمل الصالح، فقال واصفاً الأول: ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا ﴾أي إنا أرصدنا وهيأنا وأعددنا للكافرين بالله ﷻ ورسوله ﷺ وكتابه نار جهنم، الذي أحدق وأحاط بهم سورها من كل جانب، حتى لا يجدوا مخلصاً منها، عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لسرادق النار أربعة جُدُرٍ، كُثُف[2] كل جدار مسافة أربعين سنة"[3]، والسرادق: واحد السرادقات التي تُمدُّ فوق صحن الدار أو السور.

---

[1] التفسير المنهجي (6/ 31- 32)

[2] كُثُف: جمع كثيف، وهو الثخين الغليظ.

[3] سنن الترمذي (706/4)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (643/4)

الجزاء من جنس العمل: ضيق الظالمون على المؤمنين في الدنيا، وحاصروهم في أرزاقهم وأوطانهم، وأحاطوهم بسرادقات الإيذاء والعناء، فعاملهم الله ﷻ بالمثل، وضيق عليهم في الآخرة، وأحاطهم بسرادقات النار.

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ أي إن يطلب هؤلاء الكافرون الظالمون الإغاثة والمدد والماء وهم في النار، لإطفاء عطشهم، بسبب حَرّ جهنم، يغاثوا بماء غليظ كدُردي الزيت، أو كالدم والقيح، يشوي جلود الوجوه من شدة حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه فيه، عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: "المهل كعَكَر الزيت، فإذا قرَّبه إلى وجهه، سقطت فَرْوة وجهه فيه"[1].

شدة عذاب النار، قال ابن عرفة: "ولم يقل: وجوههم إشارة إلى عظمته وتعدي دخانه للغير، بحيث يخرج عنهم، ويكاد يشوي وجوه غيرهم معهم"[2].

﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي بئس هذا الشراب شرابهم، فما أقبحه، فهو لا يزيل عطشاً، ولا يُسكّن حرارة، بل يزيد فيها، وساءت جهنم مرتفقاً، أي ساءت النار منزلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق والانتفاع، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ الفرقان: ٦٦ [3]

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 646).

[2] تفسير ابن عرفة (87/3).

[3] التفسير المنير (15/ 243)

قال الحسن البصري رضي الله عنه: "إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً في طاعة الله عز وجل، فبغاك وبغاك أي طلبك مرة بعد مرة فإذا رآك مداوماً ملّك ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك"[1].

[1] الزهد والرقائق لابن المبارك (7/1).

الآية الثلاثون: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ الكهف: ٣٠

أي إن الذين آمنوا بالله ﷻ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلا يضيع الله ﷻ أجرهم على إحسانهم العمل.

والعطف بين الإيمان والعمل يدل على أن العمل الصالح مغاير للإيمان؛ لأن العطف يوجب المغايرة[1]

وفي هذه الآية شروع في تبيين عاقبة من اختار الإيمان على الكفر، وقاده إيمانه إلى العمل الصالح، فهؤلاء أعمالهم لا تذهب ضياعاً وسدى، كما هو حال أعمال الكافرين، بل يجزيهم الله ﷻ عليها أحسن الجزاء.

هذه قاعدة عامة: الله ﷻ لا يضيع أجر من أحسن، وهي تصلح أن تكون جارية على المؤمن والكافر، لذلك لم يقل: "إلا نضيع أجر المؤمنين"؛ لأن الكافر قد يُحسِن العمل، فلا يبخسه الله ﷻ حقه، بل يوفيه حظه من الجزاء والثناء والعطاء في الدنيا.

وهذا التوجيه الثالث: وهو إعلان مجيء الحق واضحاً ظاهراً من الله ﷻ، بحيث لم يبقَ إلا التهديد والوعيد الشديد على كفرهم.

[1] التفسير المنير (15/ 243)

قال الحسن البصري رحمه الله: "ابن آدم.. إنما أنت ضيف، والضيف مرتحل، ومستعار، والعارية مؤدّاة ومردودة، فما عسى ضيف ومقام عارية، لله در أقوام نظروا بعين الحقيقة، وقدموا إلى دار المستقر".

الآية الحادية والثلاثون: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

الكهف: ٣١

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي أولئك لهم جنان إقامة دائمة، تجري فيها الأنهار من تحت غرفهم ومنازلهم.

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ أي يلبسون فيها حلية فيها أساور من ذهب، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء"[1]، وفي آية أخرى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ الحج: ٢٣

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي ويلبسون سندساً هو رقيق الحرير، واستبرقاً وهو غليظ الديباج أو الحرير، واختير الأخضر لراحة العين عند إبصاره.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ أي مضطجعين فيها على السرر، شأنهم شأن الملوك والعظماء، والأرائك: جمع أريكة وهي السرير.

[1] صحيح مسلم (2019/1).

﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم، وحسنت منزلاً ومقراً ومقاماً، كما قال ﷻ في آية أخرى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ الفرقان: ٧٦ [1]

فمصير الذين يؤمنون بالله ﷻ ويعملون الصالحات جنات يقيمون فيها إقامة دائمة لا تنقطع ولا تنتهي، وفي هذه الجنات جميع أصناف النعيم، ففيها أنهار تجري تحت منازلها، وهي أنهار متنوعة، قال ﷻ: ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ ﴿١٥﴾ ﴾ محمد: ١٥، وفيها أساور من ذهب يحلى بها أهل الجنة، **والأساور: جمع أسورة، وفي تنكيرها إشعار بأنها في غاية الجمال والروعة**، قال ﷻ: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ الإنسان: ٢١، ويلبس أهل الجنة ثياباً لونها أخضر، **واللون الأخضر هو أحسن الألوان وأكثرها طراوة وراحة للعين**، وقد نسجت هذه الثياب من رقيق الحرير، وبعضها غليظه، والجمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتيه الأنفس وتلذ الأعين، وللدلالة على عظم النعيم، قال ﷻ: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ الزخرف: ٧١، فالسندس رقيق الحرير لباس داخلي، والإستبراق غليظ الحرير يلبس فوقه، ويتكئون على الأرائك وهي

[1] التفسير المنير (244/15)

السرر المزينة الفاخرة المرخاة عليها الستور الجميلة، **وخصص الاتكاء في الذكر؛ لأنه هيئة المتنعمين.**

"هذا جزاء المتقين المؤمنين الذين كانوا يعملون الصالحات، ونعم الجزاء هو، وحسنت الجنة دار إقامة ونعيم لأهلها، فمن أرادها عليه أن يسعى لها بالعمل الصالح والاجتهاد في طاعة الله ﷻ"[1]

قال الحسن البصري رضي الله عنه: ""ما نظرت ببصري ولا نطقت بلساني ولا بطشت بيدي ولا نهضت على قدمي حتى أنظر أعلى طاعة أو على معصية؟ فإن كانت طاعته تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت"[2].

[1] التفسير المنهجي (6/32- 33)

[2] تفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 257).

الفقرة الرابعة

قصة صاحب الجنتين

فتنة المال

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ
أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ
أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ
فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤
وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا
٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا
مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي
خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي
وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ
ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ
رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ
طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ
ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ الكهف: ٣٢ – ٤٤

الآية الثانية والثلاثون: ﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ ﴾ الكهف: ٣٢

هذا مثل ضربه الله ﷻ للمشركين وأمثالهم المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا بأمواله وأحسابهم.

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ ﴾ اضرب مثلاً أيها الرسول ﷺ لهؤلاء المشركين بالله ﷻ الذين طلبوا منك طرد المؤمنين الدعاة المخلصين لله ﷻ صباح مساء وفي كل وقت، ذلك المثل هو حال رجلين، جعل الله ﷻ لأحدهما جنتين أي بستانين من أعناب، محاطين بنخل، وفي وسطها الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة، فجمع بين القوت والفاكهة، فقوله: ﴿ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ ﴾أي وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين.

والرجلان أخوان أو صديقان أو شريكان من بني إسرائيل، أحدهما كافر مغتر بدنياه، والثاني مؤمن موحد بالله ﷻ [1]

والقصد من هذا المثل العظة والعبرة، فقد آل حال الكافر المغرور إلى الدمار والإفلاس، لكفران النعم وعصيان الله ﷻ، وظل المؤمن الفقير على طاعة الله ﷻ، بالرغم من معاناته الشدائد والمتاعب، فآتاه الله ﷻ الخلود في الجنة.

وهذا المثل ضربه الله ﷻ لعباده؛ ليتعظوا ويبتعدوا عما فيه من خصال مذمومة، ويعلموا بما جاء فيه من خصال حميدة.

[1] التفسير المنير (15/251-252)

قال الحسن البصري رحمه الله: " الصبر كنز من كنوز الجنة، لا يعطيه الله سبحانه وتعالى إلا لمن كرم عليه."[1]

[1] مجموعة رسائل ابن رجب (152/3).

الآية الثالثة والثلاثون: ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الكهف: ٣٣

"أي أخرجت الجنتان ثمرهما في غاية الجودة والجمال والحسن، ولم تنقص منه شيئاً في كل عام، وشققنا وأجرينا وسط الجنتين نهراً، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب"[1]

يقول أبو السعود: "ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ايتاء الأكل مع أن الترتيب الخارجي على العكس للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنتين كما في قصة البقرة ونحوها، ولو عكس لا نفهم أن مجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض، فإن إيتاء الأكل متفرع على السقي عادة، وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لا يتوقف على السقي، كقوله ﷻ: ﴿ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ النور: ٣٥ [2]

في هاتين الآيتين تصوير جميل لمنظر الحديقتين المثمرتين المحاطتين بأشجار النخيل لحمايتهما، وفيهما أنواع الزروع المختلفة وتجري فيهما الأنهار البهيجة.

قال الحسن البصري ﷺ: ""بئس الرفيقان الدرهم والدينار لا ينفعانك حتى يفارقانك"[3]

---

[1] التفسير المنير (15/ 152).

[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (221/5)

[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 155).

الآية الرابعة والثلاثون: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ الكهف: ٣٤

"كان لصاحب البستانين أنواع أخرى من المال من النقدين الذهب والفضة بسبب التجارة وتنمية ثمار الأرض.

وأدى به هذا الغنى إلى الزهو والكبرياء والاغترار بالمال، شأن كل غني مغرور، فقال صاحب هاتين الجنتين لصاحبه المؤمن الفقير، وهو يجادله ويخاصمه ويحاوره الحديث، ويفتخر عليه: أنا أكثر منك ثروة، وأعز نفراً، أي أكثر خدماً وحشماً وولداً، وأقوى عشيرة ورهطاً يدافعون عني"[1]

فتتحدث هذه الآية عن جانب من حوار دار بين صاحب الجنتين الكافر بنعم الله ﷻ عليه وصاحبه المؤمن، حيث اغتر الكافر بما آتاه الله ﷻ من مال وجاه، وعيّر صاحبه بفقره، وهما يطوفان في الجنتين.

يقول القاسمي: "وكان لصاحب الجنتين أنواع المال غير الجنتين، فقال لصاحبه وهو يراجعه الكلام، تعييراً له بالفقر، وفخراً عليه بالمال والجاه، أنا أكثر منك مالاً وأنصاراً وحشماً"[2]

فإن أعظم فتنة لهذه الأمة فتنة المال، قال رسول الله ﷺ: "إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال"[3]

---

[1] التفسير المنير (15/ 252)

[2] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 32)

[3] مسند أحمد (15/29)، صحيح ابن حبان (17/8)، المعجم الكبير للطبراني (179/19)، المستدرك على الصحيحين (354/4)

قال الحسن البصري رضي الله عنه: "إن المؤمن يصبح حزيناً ويمسي حزيناً ولا يسعه غير ذلك؛ لأنه بين مخافتين، بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله عز وجل صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيبه فيه من المهلك"[1]

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 132).

الآية الخامسة والثلاثون: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ الكهف: ٣٥

واغتر هذا الرجل بما يملك من حطام الدنيا ومتاعها، وظن أنه مخلد فيه، فدخل إحدى جنتيه وهو متمرد متكبر منكر البعث والمعاد، وفي ذلك ظلم للنفس وكفر للنعمة، وقال عندما رأى ثمارها وخضرتها: إن جنتي هذه لن تهلك أبداً.

وازداد به الغرور ظنه استمرار تلك الثروة وعدم فنائها لقلة عقله وضعف يقينه بالله ﷻ، وهذا ما حكاه القرآن عنه:

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أي ودخل هذا الثري المترف بستانه ذا الجناحين مع صاحبه المؤمن الفقير الصالح، فقال اغتراراً منه، وهو ظالم لنفسه بكفره وتمرده وتجبره وإنكار المعاد حين عاين الثمار والزروع والأنهار المتدفقة في مزرعته: ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبداً"[1]

قال الحسن البصري رحمه الله: " يحاسب الله ﷻ المؤمنين يومَ القيامة بالمَنَّة والفضل، ويعذِّبُ الكافرين بالحُجة والعدل"[2]

[1] التفسير المنير (15/252- 253).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (10/361).

الآية السادسة والثلاثون: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الكهف: ٣٦

وتمادى في غفلته وإعجابه بما يمتلك، فنطق بالكفر الصريح، معلناً أنه لا يؤمن بيوم القيامة، وأنه على افتراض حصول ذلك، فإنه سيكون يوم القيامة مالكاً لأحسن من جنتيه هاتين، وستكون عاقبته ومرجعه إلى خير ونعيم، ظناً منه أن ما أعطيه في الدنيا عن استحقاق وأن كرامة من الله ﷻ له[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي القيامة كائنة، وكان في الحالتين مخطئاً ظالماً لنفسه بوضعه الشيء في غير محله؛ إذ كان يجب عليه شكر تلك النعمة، وتفكره في عالم الآخرة، وذلك لطول أمله، وشدة حرصه، وتمام غفلته، وشدة اغتراره بالدنيا.

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أي إن رجعت إلى ربي، على سبيل الفرض والتقدير، وكما يزعم صاحبي، لألفين في الآخرة عند ربي خيراً وأحسن من هذا الحظ في الدنيا، تمنياً على الله ﷻ، وادعاء لكرامتي عنده ومكانتي لديه، وأنه لولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، ولولا استحقاقي واستئهالي ما أغناني في الدنيا، كما قال في آية أخرى على لسان الكافر: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ فصلت: ٥٠ [2]

[1] التفسير المنهجي (6/ 36-37)

[2] التفسير المنير (253/15).

قال السعدي: "فأي تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله ﷻ يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب"[1]

قال الحسن البصري رضي الله عنه: " من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره عبرة فهو لهو"[2]

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (477/1).
[2] التبصرة (1/ 65).

الآية السابعة والثلاثون: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الكهف: ٣٧

"أي أجابه صاحبه المؤمن واعظاً له، وزاجراً عما هو فيه من الكفر والاغترار: أكفرت بمن خلقك من تراب؟ أي خلق أصلك من تراب، وخلق أصله سبب في خلقه، فكان خلقه خلقاً له، وكذلك غذاؤك وغذاء الحيوان من النبات، وغذاء النبات من الماء والتراب، ثم يتحول هذا الغذاء دماً، يتحول بعضه إلى نطفة تكون وسيلة للخلق، ثم خلقك بشراً سوياً تام الخلق والأعضاء، فقوله: ﴿ سَوَّىٰكَ ﴾ معناه عدَّلك وكمَّلك إنساناً تاماً بالغاً مبلغ الرجال"[1]

إن أعظم الجحود أن تجحد من خلقك، وأبشع نكران للجميل ما كان تجاه من سوَّاك فعدلك، والفخر الحقيقي بالإسلام، والنعمة الباقية هي نعمة التوحيد، وكل ما عدا ذلك عرضة للزوال، هو الله ﷻ ربي في الفقر والغنى، والمرض والصحة، والمنع والعطاء، والرب يربي عبده بما يعلم أنه الأصلح له، والله ﷻ يعلم وأنتم لا تعلمون، وهو المستحق للعبادة والطاعة، وهو وحده المنعم المتفضل على عباده.

[1] التفسير المنير (15/ 253).

قال الحسن البصري رحمه الله: "أيها الناس، إني أعظكم ولستُ بخيركم ولا أصلحكم، وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لها، ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها عز وجل، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه، لعُدم الواعظون، وقلَّ المذكرون، ولما وجد من يدعو إلى الله عز وجل ويرغب في طاعته، وينهى عن معصيته، ولكن في اجتماع أهل البصائر، ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضًا حياة لقلوب المتقين، وادِّكار من الغفلة، وأمان من النسيان، فالزموا مجالس الذكر؛ فرب كلمة مسموعة، ومحتقر نافع؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ آل عمران: ١٠٢ [1]

[1] الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار (279/2).

الآية الثامنة والثلاثون: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا

﴿٣٨﴾ الكهف: ٣٨

"أي لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أقر بالوحدانية والربوبية، ولا أشرك به أحداً، بل هو الله ﷻ المعبود وحده لا شريك له، وإن كنت كذلك منكراً للبعث فأنا أقول: "إن الذي خلقني وأنعم عليّ بنعمه هو الله ربي ﷻ، وإني لن أشرك به أحداً من خلقه، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة، وهو وحده المنعم المتفضل على عباده ﷻ"[1]

قال الحسن البصري ﷺ: "يا ابن ادم، أن لك عاجلاً وعاقبة فلا تؤثر عاجلتك على عاقبتك فقد والله رأيت أقوماً آثروا على عاقبتهم فهلكوا وذلوا وافتضحوا"[2]

[1] التفسير المنير (15/ 254).
[2] بحر الدموع (1/ 69).

الآية التاسعة والثلاثون: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ الكهف: ٣٩

"هذا من تتمَّة كلام الرجل المؤمن لصاحب الجنتين، يحثه على ذكر اسم الله ﷻ عند دخول حديقته، وأن يعترف بأن النعم التي عنده هي من فضل الله ﷻ عليه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا قدرة لأحد على فعل شيء إلا بإعانة الله ﷻ له"[1]

وهذا تعليم من المؤمن للكافر وتوبيخ له.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها، حمدت الله ﷻ على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطِ غيرك، وقلت: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله ﷻ، أي الأمر ما شاء الله، والكائن ما قدر الله ﷻ، ليكون دليلاً على عبوديتك والاعتراف بالعجز.

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ أي أنك إذ تنظر إلي بأني أفقر منك في المال، وأقل منك أولاداً وعشيرة في هذه الدنيا الفانية، فإني أتوقع انقلاب الحال في الآخرة وأرجو أن يعطيني الله ﷻ خيراً من جنتك في الدار الآخرة"[2]

[1] التفسير المنهجي (6/ 40)
[2] التفسير المنير (15/ 254)

قال الحسن البصري ﷺ: "أيها الناس، أصبحتم في أجل منقوص، وعمل محفوظ والموت في رقابكم والنار بين أيديكم، وما ترون والله ﷻ ذاهب، فتوقعوا قضاء الله ﷻ كل يوم وليلة ولينظر امرؤ ما قدم لنفسه"[1]

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (6/ 271).

الآيتان الأربعون والحادية والأربعون: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ ﴾ الكهف: ٤٠ - ٤١

"هذا جواب الشرط ﴿ إِن تَرَنِ ﴾ أي والله ﷻ قادر على أن يغير الحال، فيعطيني من رزقه خيراً مما عندك أيها الكافر، أو أن يرسل على جنتك التي اغتررت بها عذاباً من السماء كالصاعقة، فتصبح بعد أن كانت جنة مثمرة يانعة، أرضاً جرداء خالية من النبات والأشجار، ملساء لا يستقر عليها شيء، خالية من الماء بسبب ذهابه في باطن الأرض، بحيث لا يمكن استخراجه والإفادة منه، ولم تنفع هذه النصيحة والموعظة الكافر فاستمر على كفره، ووقع ما حذر منه المؤمن"[1]

يقول وهبة الزحيلي: "أي أرجو أن يعطيني الله ﷻ خيراً من جنتك في الدار الآخرة، ويرسل على جنتك في الدنيا التي ضننت أنها لا تبيد ولا تفنى عذاباً من السماء، كمطر شديد يقلع زرعها وأشجارها أو صواعق، فيسلبك نعمته ويخرب بستانك، وتصبح أرضاً بيضاء لا نبات فيها، وتراباً أملس، لا يثبت فيه قدم، وينزلق عليها لملامستها انزلاقاً، أو يصبح ماؤها غائراً في الأرض، فلن تتمكن من إدراكه بعد غوره، ولن تستطيع ردّ الماء الغائر بأية حيلة، وتحقق ما توقعه المؤمن"[2]

يقول البقاعي: "ولما أقر هذا المؤمن بالعجز والافتقار، في نظير ما أبدى الكافر من التقوى والافتخار، سبب عن ذلك ما جرت به العادة في كل جزاء، وداعياً بصورة

---

[1] التفسير المنهجي (6/ 40)

[2] التفسير المنير (15/ 254- 255)

التوقع فقال ﷻ: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ ﴾ المحسن إليّ ﴿ أَن يُؤۡتِيَنِ ﴾ من خزائن رزقه ﴿ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ فيحسن إليّ بالغنى كما أحسن إليّ بالفقر المقترن بالتوحيد، المنتج للسعادة ﴿ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا ﴾ أي جنتك ﴿ حُسۡبَانٗا ﴾ أي مرامي من الصواعق، والبرد الشديد ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، ولما كانت المصابحة بالمصيبة أنكى ما يكون، قال ﷻ: ﴿ فَتُصۡبِحَ ﴾ بعد كونها قرة للعين بما تهتز به من الأشجار والزروع ﴿ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴾ أي أرضاً يزلق عليها لملاستها باستئصال نباتها، فلا ينبت فيها نبات، ولا يثبت فيها قدم"[1]

الله ﷻ في لحظة واحدة قادر أن يقلب حالك، فتصبح جنتك أرضاً جرداء ملساء، لا تخرج نبات، وتصير عديمة النفع من كل شيء حتى المشي عليها.

وفي الآية دليل على جواز الدعاء بتلف أموال الظالمين، إن كانت سبباً في علوهم وطغيانهم.

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (12/ 63- 64))

قال الحسن البصري رحمه الله: " القلوب؟ إن القلوب تموت وتحيا، فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، وإذا هي أحييت فأدبوها بالتطوع"[1]

[1] الزهد لأحمد بن حنبل (1/ 216).

الآيـــــة الثانيـــــة والأربعـــــون: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ الكهف: ٤٢

يقـــول وهبـــة الزحيلـــي: "أي ونـــزل الإهـــلاك والجائحـــة بالأمـــوال والثمـــار بإرســـال الحســـبان الـــتي اغـــتر بهـــا، وألهتـــه عـــن الله ﷻ، ودمـــرت أمواله وثمـــاره، فأصـــبح نادمـــاً متحســـراً علـــى ضـــياع نفقتـــه الـــتي أنفقهـــا عليهـــا، فتقليـــب الكفـــين كنايـــة عـــن النـــدم والتحســـر، وتمـــنى متـــذكراً موعظـــة صـــاحبه أن لم يكـــن أشـــرك بربـــه ﷻ أحـــداً، والخاويـــة علـــى عروشـــها: هـــي الـــتي ســـقطت عرائشـــها علـــى الأرض، قيـــل: أرســـل الله ﷻ عليهـــا ناراً فأكلتها، وسقط بعضها على بعض"[1]

أحـــاط بـــه هـــذا العقـــاب لا لمجـــرد كفـــره، فـــإن الله ﷻ قـــد يمتـــع الكـــافر ويملـــي لـــه، وإنمـــا أحـــاط بـــه العقـــاب عقوبـــة لـــه علـــى طغيانـــه؛ ولأنـــه جعـــل ثروتـــه وســـيلة لاحتقـــار الفقـــراء، وفي الآيـــة تقريـــع للمشـــركين الـــذين اتخـــذوا أمـــوالهم ســـبباً للترفـــع عـــن مجالســـة النـــبي ﷺ؛ لأنهـــا جمعت فقراء الصحابة، وطلبوا من النبي ﷺ طردهم عن مجلسه.

[1] التفسير المنير (15/ 255)

قال الحسن البصري رحمه الله: "إن الله ﷻ لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت، فعليكم بالمداومة؛ فإنه ﷻ يقول: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر: ٩٩

1

[1] الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار (2/ 280).

الآية الثالثة والأربعون: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الكهف: ٤٣

"أي ولم تنصره وتفيده عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واعتز، وما كان منتصراً أي ممتنعاً بقوته عن انتقام الله ﷻ"[1]

"كان صاحب الجنتين معتزاً بماله وأعوانه، معتمداً عليهما لدفع الضر عنه، إلا أنه لما وقع به عقاب الله ﷻ لم ينفعه رجاله وأعوانه، وما كانوا يقدرون على دفع ما وقع به ونصره، فأين قدرة هؤلاء وأمثالهم من قدرة العظيم القادر ﷻ على كل شيء، ولم يكن ليستطيع هو أن يدفع عن ذاته وملكه غضب الله ﷻ عليه، فذهب ما كان يعتز به ويفخر، ولم يبقَ له قوة ولا عزة، وفي هذا أبلغ الدلالة على أن الأمور بيد الله ﷻ وحده"[2]

قال الحسن البصري رحمه الله: " إن الدنيا دار عمل من صحبها بالنقص لها والزهادة فيها سعد بها، ونفعته صحبتها ومن صحبها على الرغبة فيها والمحبة لها شقي بها وأجحف بحظه من الله ﷻ ثم أسلمته إلى ما لا صبر له عليه ولا طاقة له به من عذاب الله ﷻ"[3]

---

[1] التفسير المنير (15/ 255)

[2] التفسير المنهجي (6/ 40-41)

[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 140).

الآية الرابعة والأربعون: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الكهف: ٤٤

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ هذا تأكيد للجملة السابقة، أي إنه في هذه الحال من الشدة والمحنة تكون النصرة لله ﷻ وحده، ويؤمن فيها البرّ والفاجر، ويرجع كل أحد مؤمن أو كافر إلى الله ﷻ وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، والولاية: السلطان والملك والنصرة والحكم.

﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي إن الله ﷻ خير جزاءً، وأفضل عاقبة لأوليائه المؤمنين، فينصرهم ويعوضهم عما فقدوه في دار الدنيا، ويكون ثواب الأعمال التي تكون لله ﷻ خيراً، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير؛ لأن الله ﷻ هو خير ثواباً لمن آمن به، وخير عاقبة لمن رجاه وآمن به"[1]

يقول النسفي: "هنالك أي في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله ﷻ وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها أحد سواه تقريراً لقوله ﷻ: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، أوو هنالك السلطان والملك لله ﷻ لا يغلب، أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ﷻ ويؤمن به كل مضطر، يعني أن قوله: ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ كلمة ألجيء إليها فقالها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره،

[1] التفسير المنير (15/ 255- 256)

ولولا ذلك لم يقلها، أو هنالك الولاية لله ﷻ ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم، يعني أنه نصر فيما فعل الكافر أخاه المؤمن، وصدق قوله:

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ويؤيده قوله: ﴿ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴾أي لأوليائه، أو هنالك إشارة إلى الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله ﷻ كقوله: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ١٦ ﴾ غافر: ١٦، الحق بالرفع أبو عمرو وعلي، صفة للولاية، أو خبر مبتدأ محذوف، أي هي الحق، أو هو الحق، غيرهما بالجر صفة لله ﷻ عقباً بمعنى العاقبة"[1]

ففي مثل هذه الأحوال يتبين للناس أن النصر والعون إنما هو من عند الله ﷻ وحده، وأن الملك والقوة والسلطان لله ﷻ الحق لا لغيره، وهو ﷻ خير من يثيب على الإيمان والعمل الصالح، وعاقبة طاعة الله ﷻ خير وأبقى.

قال الحسن البصري ﷺ: "ابن آدم، إن المؤمن لا يصبح إلا خائفًا، وإن كان محسنًا، ولا يصلح أن يكون إلا كذلك؛ لأنه بين مخافتين: ذنب مضى لا يدري ما الله ﷻ صانع فيه، وأجل قد بقي لا يدري ما الله ﷻ مُبتليه فيه، فرحم الله ﷻ عبدًا فكَّر واعتبر، واستبصر فأبصر، ونهى النفس عن الهوى"[2]

[1] مدارك التنزيل وحقائق التأويل تفسير النسفي (2/ 303).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 158).

الفقرة الخامسة

دواء فتنة المال

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ
ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ
وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ
رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ
لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ
وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً
إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾
وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ
فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ
لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم
مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا
﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ
يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن

يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡبِلَۢا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ الكهف: ٤٥ - ٥٩

الآية الخامسة والأربعون: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ الكهف: ٤٥

"اضرب مثلاً آخر يا محمد للناس من مشركي مكة وغيرهم الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، مثلاً يبين حقارة الدنيا وقلة بقائها، وزوالها وفنائها، فهي بعد الخضرة والنضارة والبهجة تصبح بمراد الله ﷻ عابسة قاتمة لا جمال فيها ولا روعة، إنها في نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال تشبه حال نبات أخضر فيه زهر ونضرة وحبّ، نبت وتكون بماء السماء، ثم بعد هذا كله أصبح هشيماً، أي يابساً، تذروه الرياح أي تفرقه وتنثره ذات اليمين وذات الشمال.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ أي والله ﷻ قادر على الإنشاء والإفناء، وعلى كل الأحوال، حال الخضرة والنضرة، وحال اليبس والهلاك والفناء، فلا ينبغي للعاقل أن يغتر بإقبال الدنيا أو يفخر بها أو يتكبر بسببها"[1]

"لما بين الله ﷻ في المثل الأول حال الكافر والمؤمن، وما آل إليه ما افتخر به الكافر من الهلاك، بين في هذا المثل حال الحياة الدنيا واضمحلالها، ومصير ما فيها من النعيم، والترفه إلى الهلاك"[2]

يقول القرطبي: "صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مثل الحياة الدنيا، أي شبهها ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ ﴾ أي بالماء ﴿

[1] التفسير المنير (15/ 260)
[2] البخر المحيط (7/ 185).

﴿ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ حتى استوى، وقيل: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر، وقالت الحكماء: إنما شبه ﷻ الدنيا بالماء؛ لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد؛ ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر، عن النبي ﷺ: "قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه"[1]، فأصبح النبات متكسراً من اليبس متفتتاً، بانقطاع الماء عنه، تفرقه الرياح تذهب به وتجيء"[2]

ثم أخبر ﷻ عن اقتداره على كل شيء، **قال ابن عاشور**: "وجملة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ جملة معترضة في آخر الكلام، موقعها التذكير بقدرة الله ﷻ على خلق الأشياء وأضدادها، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب. وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وهو بذلك العموم أشبه التذييل. والمقتدر: القوي القدرة"[3]

ويقول سيد قطب في هذه الآية: "هذا المشهد يُعْرَضُ قصيراً خاطفاً ليقي في النفس ظل الفناء والزوال؛ فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل؛ ولكن يختلط به

---

[1] صحيح مسلم (2/ 730).
[2] تفسير القرطبي (10/ 412).
[3] التحرير والتنوير (15/ 332).

نبات الأرض، والنبات لا ينمو ولا ينضج، ولكنه يصبح هشيماً تذروه الرياح، وما بين ثلاث جمل قصار ينتهي شريط الحياة، ولقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فـ ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فـ ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ فما أقصرها حياة! وما أهونها حياة!"[1]

قال الحسن البصري رحمه الله: "ابن آدم، إن الله تعالى أمر بالطاعة، وأعان عليها، ولم يجعل عذرًا في تركها، ونهى عن المعصية، ونفى عنها، ولم يوسع لأحد في ركوبها، ولقد روي أن الله تعالى يقول يوم القيامة لآدم: "يا آدم، أنت اليوم عدل بيني وبين ذريتك، فمن رجح خيره على شره مثقال ذرة، فله الجنة؛ حتى تعلم أني لا أعذب إلا ظالماً"[2]

[1] في ظلال القرآن/ سيد قطب (4/ 2271- 2272)
[2] المجالسة وجواهر العلم (3/ 466).

الآية السادسة والأربعون: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ الكهف: ٤٦

"بعد أن ضرب الله ﷻ لعباده مثل الحياة الدنيا التي يغتر بها كثير من الناس، بين لهم حقيقة أخرى لينتفعوا بها، وهي أن الأموال والأولاد زينة الحياة الدنيا لا غير، ثم يبيدان ويذهبان، فلا يجوز لأحد أن يغتر بهما، ولا يجعلهما همه في حياته، فيصرفانه عن العمل الصالح، ولذا وجه الله ﷻ عباده لما هو أحسن لهم وأكثر ثواباً من التعلق بالأموال والأولاد، والغفلة عن العمل والطاعة، ألا وهو الأعمال الصالحة، فهي التي يبقى ثمرتها للإنسان بعد موته، وينال بها صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره: "﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي إن الأموال والبنين هي من زينة الحياة الدنيا، وليست من زينة الآخرة الدائمة، فهي سريعة الفناء والانقراض، فلا ينبغي للعاقل الاغترار بها والتفاخر بها، والمقصود إدخال هذا الجزء تحت ذلك الكل في المثل السابق الذي أبان سرعة انقضاء الدنيا وإشراقها على الزوال والفناء، والسبب في ذكر المال والبنين فقط؛ لأن المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوةً ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد جمعهما الله ﷻ لأقوام"[2]

---

[1] التفسير المنهجي (6/ 44)

[2] تفسير ابن حاتم (8/ 2783)، كنز العمال (226/16).

﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ أي إن أعمال الخير وأفعال الطاعات، كالصلوات والصدقات، والجهاد في سبيل الله ﷻ، ومساعدة الفقراء، والأذكار أفضل ثواباً، وأعظم قربة عند الله ﷻ، وأبقى أثراً؛ إذ ثوابها عائد على صاحبها، وخير أملاً حيث ينال صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا"[1]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر"[2]

وقال عثمان بن عفان ﷺ: "هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[3]

فجدير بالمؤمن ألا يتعلق بالأموال والأولاد؛ لأنهما زائلان، ويتعلق بالله ﷻ أولاً ثم بالأعمال الصالحة؛ لأنها هي الباقية، وسيجد ثوابها في الآخرة، ويتحقق له ما كان يؤمله من جزاء.

قال الحسن البصري ﷺ: "ما في جهنم وادٍ، ولا سلسلة، ولا قيد، إلا واسم صاحبه مكتوب عليه ما حكم في القضاء، فكيف – أيها الناس – إن اجتمع ذلك كله على عبد؟! اتقوا الله أيها الناس، واحذروا مقته؛ فلمقت الله أكبر لو كانوا يعلمون"[4]

---

[1] التفسير المنير (15/ 261)

[2] شرح صحيح البخاري لابن بطال (10/ 133).

[3] مسند أحمد (1/ 71).

[4] يقظة أولى الاعتبار (1/ 142).

الآية السابعة والأربعون: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ الكهف: ٤٧

"بعد أن ذكر الله ﷻ فناء الدنيا، ذكر مشاهد يوم القيامة، ومنها: تسيير الجبال وإزالتها، فتصبح هباءً منبثاً لا أثر لها كأن لم تكن، وبذلك تصبح الأرض ظاهرة من جميع جوانبها، لا جبال فيها ولا وديان، فهي أرض مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، ويجمع الله ﷻ الناس كلهم بعد أن يبعثهم من القبور، لا يتخلف منهم أحد، وهذا مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة"[1]

وفي التعبير عن الحشر بالفعل الماضي ما يدل على تحقيق حصوله، وأنه كائن بلا ريب، فلا وجه لإنكاره.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره: "يخبر الله ﷻ عن أهوال القيامة وما فيها من الأمور العظام وهي:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ أي واذكر يا محمد حين نذهب بالجبال من أماكنها، ونزيلها، ونبددها كالسحاب هباءً منثوراً، كما قال ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ طه: ١٠٥

وهذا يدل على تبدل الحال، وتغير الوضع الذي كان في الدنيا، وإزاحة الجبال من مواضعها، وجعلها هباءً منتشراً كالسحاب

[1] التفسير المنهجي (6/ 44)

﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةً ﴾ أي وتنظر أيها الإنسان جميع الأرض ظاهرة بادية، ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم في صعيد واحد، صافون أمام ربهم ﷻ، لا تخفى عليه خافية، وهذا معنى قوله ﷻ في آية نسف الجبال السابقة: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفۡصَفًا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا ١٠٧ ﴾ طه: ١٠٦ – ١٠٧، أي تصبح الأرض سطحاً مستوياً، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، ولا جبل ولا وادي.

هذان الأمران تسيير الجبال وتسوية الأرض متعلقان بشأن الدنيا.

﴿ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدًا ﴾ أي وجمعنا الأولين والآخرين للحساب وجمعناكم إلى الموقف، فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال ﷻ:

﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠ ﴾ الواقعة: ٤٩ – ٥٠، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ ﴾ هود: ١٠٣، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يُحشَرُ الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً، فقلت يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض"[1][2]

يقول السعدي: "يخبر ﷻ عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال: ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ ﴾ أي يزيلها عن أماكنها، يجعلها

[1] صحيح مسلم (4/ 2194).
[2] التفسير المنير (15/ 264- 265)

كثيباً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلاشى، وتكون هباءً منبثاً، وتبرز الأرض، فتصير قاعاً صفصفاً، لا عوج فيه ، ولا أمتاً، ويحشر الله ﷻ جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وفغور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعد ما تمزقوا، خلقاً جديداً"[1]

أشد الزلازل تدميراً في الدنيا لا تستطيع اقتلاع الجبال من جذورها، لكن كل شيء يوم القيام مختلف، فيوم القيامة زلزال الزلازل الذي يفتت أقوى الجمادات، ويجعلها تطير مع السحاب.

قال الحسن البصري رحمه الله: "سبحان من أذاق قلوب العارفين من حلاوة الانقطاع إليه، ولذة الخدمة له ما علَّق هِمَمهم بذكره، وشغل قلوبهم عن غيره، فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته، ولا أقر لأعينهم من خدمته، ولا أخف على ألسنتهم من ذكره ﷻ عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا"[2]

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 479).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (9/ 356)، صفة الصفوة (2/ 479)

الآية الثامنة والأربعون: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ الكهف: ٤٨

"وبعد الحشر يكون العرض والحساب، فكلهم ظاهرون لا يحجب أحد منهم أحداً، وهم مصطفون صفوفاً بحسب أممهم وأصنافهم، قد أعيد خلقهم، وهم اليوم محشورون مجردون من الثياب والأعوان، لا يملكون شيئاً يتفاخرون به، ويقال لهم: لقد جئتمونا فرادى حفاة عراة، وكنتم تزعمون أن لا بعث ولا حساب"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ أي ويعرض البشر قاطبة أمام الله ﷻ صفاً واحداً، كما قال ﷻ: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ الفجر: ٢٢، لقد أتيتم إلينا أيها الناس جميعاً أحياء، كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة في الدنيا، حفاة عراة، لا شيء معكم، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴿٩٤﴾ ﴾ الأنعام: ٩٤

يقول السعدي: "أي بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها."[2]

وهذا تقريع لمنكري المعاد، وتوبيخ لهم أمام الناس، وهو إثبات لمبدأ العرض والحساب على الله ﷻ.

---

[1] التفسير المنهجي (45/6)

[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 479)

﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ أي بل ظننتم أنه لا لقاء لكم مع الله ﷻ، وما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أنه كائن"[1]

لم يغب عن الله ﷻ منهم أحد في الدنيا ولو استتروا، لكنهم يوم القيامة أشد انكشافاً وافتضاحاً في يوم العرض الأكبر.

قال الحسن البصري ﷺ: "إن لله ﷻ عبادًا قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأنفسهم عفيفة، وجوانحهم خفيفة، صبروا الأيام القلائل؛ لما رجوا في الدهور الأطاول، أما الليل، فقائمون على أقدامهم، يتضرعون إلى ربهم ﷻ، ويسعون في فكاك رقابهم، تجري من الخشية دموعهم، وتخفق من الخوف قلوبهم، وأما النهار، فحكماء علماء أتقياء أخفياء، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفُّف، تخالهم من الخشية مرضى، وما بهم مرض، ولكنهم خولطوا بذكر النار وأهوالها، لهم – والله – كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم، وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم، ولهم كانوا بحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المجادلة: ٢٢ [2]

[1] التفسير المنير (15/ 266).
[2] الترغيب والترهيب لقوام السنة (1/ 309).

الآية التاسعة والأربعون: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾

﴿ الكهف: ٤٩

"وعند الحساب يوضع كتاب كل امرئ بيده، في يمينه أو في شماله، واذي يوضع كتابه بشماله يكون خائفاً مما ينتظره من سوء المآل، فقد أجرم بحق نفسه، وسيدعو هؤلاء الذين يوضع كتابهم بشمالهم على أنفسهم بالهلاك وهم ينظرون في كتابهم، ويجدون فيه كل ما عملوه، صغيراً كان وكبيراً، والله ﷻ لا يظلم أحداً، وسيجازيهم حسب أعمالهم، فلا يعاقب أحداً بغير جرم، ولا ينقص من ثواب المحسنين"[1]

يقول الرازي: "والمراد أنه يوضع في هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ كتاب كل إنسان في يده إما في اليمين أو في الشمال، والمراد الجنس وهو صحف الأعمال، وترى المجرمين خائفين مما في الكتاب من أعمالهم الخبيثة، وخائفين من ظهور ذلك لأهل الموقف فيفتضحون، وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق، وخوف الفضيحة عند الخلق، ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا ﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾

[1] التفسير المنهجي (6/ 45)

وهي عبارة عن الإحاطة، بمعنى لا يترك شيئاً من المعاصي سواء أكانت صغيرة أم كبيرة إلا وهي مذكورة في هذا الكتاب، ونظيره قوله ﷻ:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ الانفطار: ١٠ – ١٢، وإدخال تاء التأنيث في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة ﴿ إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ إلا ضبطها وحصرها، وقال بعض العلماء: ضجوا من الصغائر قبل الكبائر؛ لأن تلك الصغائر هي التي جرتهم إلى الكبائر، فاحترزوا من الصغائر جداً، ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ في الصحف عتيداً أو جزاء ما عملوا ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي لا يكتب عليه ما لم يفعل، ولا يزيد في عقابه المستحق، ولا يعذب أحداً بجرم غيره"[1]

يقول وهبة الزحيلي: "﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي ووضع كتاب الأعمال: أعمال الناس من خير أو شر، صغير أو كبير، فترى العصاة المجرمين خائفين مما فيه من أعمالهم السيئة، وأفعالهم القبيحة.

يقو ابن القيم رحمه الله: "القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف"[2]

---

[1] التفسير الكبير للرازي (21/ 470).

[2] مدارج السالكين (1/ 513).

﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾أي ويقول أولئك المجرمون: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمالنا، وما لهذا الكتاب لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً، ولا شاردة ولا واردة إلا أحصاها، أي ضبطها وحفظها، فهو شامل لكل شيء، كما قال ﷻ: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨ ﴾ ق: ١٧ – ١٨، ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢ ﴾ الانفطار: ١٠ - ١٢

الآية تدل على إثبات صغائر وكبائر في الذنوب، وهذا متفق عليه بين المسلمين.

﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا ﴾ أي ووجد الناس ما عملوا مثبتاً في كتابهم، من خير أو شر، وقيل: جزاء ما عملوا، كما قال ﷻ: ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ ٣٠ ﴾ آل عمران: ٣٠، وقال ﷻ: ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ ﴾ القيامة: ١٣

﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ ليس في حكم الله ﷻ أي ظلم لخلقه؛ إذ مبدأ الثواب والعقاب مما يقتضيه العدل الإلهي المطلق، حتى يكافأ المحسن، ويجازى المسيء، بل إنه ﷻ بمقتضى رحمته يعفو ويصفح، ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء من خلقه بقدرته محكمته وعدله، فيخلّد الكفار في نار جهنم، ويعذب العصاة فيها، ثم ينجّيهم منها، وحكمه في كل حال العدل، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، فلا

يكتب على إنسان ما لم يعمل، ولا يزيد في عقاب المستحق، أو يعذبه بغير جرم، ونحو هذ الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا ﴿٤٠﴾ ﴾ النساء: ٤٠، ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنبياء: ٤٧ [1]

وهذه الآية تبين خاتمة مراحل الحساب بين يدي الله ﷻ، القائم على مبدأ: إن الجزاء من جنس العمل، وإن صحائف أعمال الناس تشمل الحسنات والسيئات.

إمكانية استرجاع الماضي، تقول النظرية النسبية: إذا استطعنا أن نسير بسرعة تساوي سرعة الضوء، سوف يتوقف الزمن عند هذه النقطة، وإذا تجاوز هذه السرعة سوف يعود الزمن لنرى الماضي حقيقة واقعة أمامنا، وهذا إثبات علمي على إمكانية استرجاع الماضي.

[1] التفسير المنير (15/ 266- 267))

قال الحسن البصري رحمه الله: "ابن آدم، لا يغرنك من حولك من هذه السباع العادية: ابنك، وحليلتك وخادمك وكلالتك: أما ابنك، فمثل الأسد ينازعك ما بين يديك، وأما حليلتك فمثل الكلبة في الهرير والبصبصة؛ وأما خادمك فمثل الثعلب في الحيلة والسرقة؛ وأما كلالتك، فوالله لدرهم يصل إليهم بعد موتك أحب إليهم من أن لو كنت أعتقت رقبةً، فإياك أن توقر ظهرك بصلاحهم؛ فإنما لك منهم أيامك القلائل، وإذا وضعوك في قبرك، انصرفوا عنك، فصرفوا بعدك الثياب، وضربوا الدفوف، وضحكوا القهقهة، وأنت تحاسَب بما في أيديهم، فقدم لنفسك؛ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ آل عمران: ٣٠ [1]

[1] تفسير التستري (1/ 169).

الآية الخمسون: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف: ٥٠

"أمر الله ﷻ الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة وتعظيم، فسجدوا طائعين لأمر ربهم ﷻ، لكن إبليس لم يسجد وعصى أمر ربه ﷻ، وقد كان إبليس من الجن لا من الملائكة، وإنما ألحق بهم اما كان يظهره من الطاعة وكثرة العبادة، فدخل في جملة المأمورين بالسجود"[1]

هذا موقف إبليس من أبينا آدم عليه السلام فكيف نطيعه ونواليه من دون الله ﷻ وهو عدونا وعدو أبينا من قبل، وقد أقسم أن يغوي البشر ويضلهم، فمن أطاعه كان من الظالمين، وكان مستبدلاً طاعته واتباعه بطاعة الله ﷻ العظيم، وبئس ما صنع بهذا الاستبدال الظالم.

وفي الآية دليل على أن الشياطين يتوالدون، وأن لإبليس ذرية مثله في الشر والإفساد.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ ﴾ أي واذكر لهم يا محمد إذ أمرنا جميع الملائكة بالإلهام أن يسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام، تكريماً للنوع الإنساني، كما ذكر مراراً في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ

[1] التفسير المنهجي (6/ 48)

﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ البقرة: ٣٤، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر: ٢٨ – ٢٩، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف: ٥٠

وسبب إباء إبليس السجود لآدم عليه السلام: اغتراره بأصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، وخلق آدم عليه السلام من تراب، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"[1]، وبان من الآية السابقة أن إبليس من الجن، كما بان من آية أخرى أنه خلق من نار، وخلق آدم عليه السلام من طين، كما قال ﷻ: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ ص: ٧٦، **قال الحسن البصري** رحمه الله: "ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر"[2]

﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي إن سبب عصيانه أنه كان من عنصر الجن، فلم يعمل مثل ما عملوا، لذا قال: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أي فخرج عن طاعة الله ﷻ، فإن الفسق هو الخروج، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من أكمامها أو قشرها،

[1] صحيح مسلم (4/ 2294).
[2] تفسير الطبري (1/ 539)

ودلَّ هذا على أن فسقه بسبب كونه من الجن أي الشياطين، وشأن الجن التمرد والعصيان، لخبث ذواتهم.

الخلاصة: إن قوله ﷻ: ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ كلام مستأنف جارٍ مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين، وقوله: ﴿ فَفَسَقَ ﴾ الفاء للتسبيب أيضاً، جعل كونه من الجن سبباً في فسقه؛ لأنه لو كان ملكاً لم يفسق عن أمر ربه ﷻ؛ لأن الملائكة معصومون، على عكس الجن والإنس.

وأما ما ذكر في آية أخرى أنه من الملائكة، فلا يعارض هذه الآية؛ لأنه قد يطلق على الملائكة أنهم جن لاستتارهم عن أعين الناس.

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ﴾ أي أنه ﷻ يعجب ممن يطيع إبليس وجنده في الكفر والمعاصي، ويحذر من اتباعه بعدما عرف موقفه من أبيهم آدم عليه السلام، ويوبخ ويقرع من اتَّبعه وأطاعه، متخذاً له ولجنده ونسله نصراء دون الله ﷻ، وبدلاً عنه.

﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ أي بئس البدل للكافرين الظالمين أنفسهم وهو اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله ﷻ، وهو المنعم عليهم"[1]

قال ابن رجب: "أنت المختار من المخلوقات، ولك أعدت الجنة إن اتقيت، فهي إقطاع المتقين، والدنيا إقطاع إبليس، فكيف رضيت لنفسك بالإعراض عن إقطاعك، ومزاحمة إبليس على إقطاعه، وأن تكون غداً معه في النار من جملة

[1] التفسير المنير (15/ 272- 273)

أتباعه، إنما طردناه من السماء لأجلك، حيث تكبَّر عن السجود لأبيك، وطلبنا قربك لتكون من خاصتنا وحزبنا، فعاديتنا ووالیت عدونا"[1]

مما يدل على أن إبليس ليس من الملائكة أنه ﷻ أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية، والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل، فوجب ألا يكون إبليس من الملائكة.

قال الحسن البصري رحمه الله: "اعتبروا الناس بأعمالهم، ودعوا أقوالهم؛ فإن الله ﷻ لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يُصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولاً حسنًا، فرويدًا بصاحبه، وإن وافق منه القول العمل فنعم، ونعمت عين، وإن خالف القول العمل، فإياك أن يشتبه عليك شيء من أمره؛ فإنها خدع للسالكين"[2]

[1] تفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 618).
[2] الزهد والرقائق لابن المبارك (1/ 26).

الآية الحادية والخمسون: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١ ﴾ الكهف: ٥١

لم يكن إبليس وذريته حاضرين عندما خلق الله ﷻ السماوات والأرض، كما لم يكن بعضهم حاضراً خلق باقيهم، فهم مثلكم أيها البشر عاجزون مخلوقون، والله ﷻ لا يستعين بأحد في خلقه وتدبيره لهذا الكون، فهو الغني عنهم، فكيف تظنون أنه استعان بمن يضلون غيرهم من الشياطين ونحوهم على خلق السماوات والأرض، أو على خلق بعضهم.

يقول الرازي: "أن الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول ﷺ: إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء، لم نؤمن بك، فكأنه ﷻ قال: إن هؤلاء الذين اقترحوا الاقتراح الفاسد، ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم"[1]

في الآية دليل على ضعف الشياطين، وتبيين عظمة الله ﷻ المطلقة واستغنائه عن سائر المخلوقات.

يقول ابن كثير: "يقول ﷻ: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقي للسماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين؛ يقول ﷻ: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها، ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال ﷻ: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

[1] التفسير الكبير للرازي (21/ 473).

وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾ سبأ: ٢٢ - ٢٣ ، لهذا قال: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ قال مالك: أعواناً"[1]

يقول القاسمي: "بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير، أي وإذا لم يكونوا عضداً في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء في العبادة، واستحقاق العبادة من توابع الخالقية، والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها، والخالقية منفية عن غيره ﷻ، فينفي لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير، وهم المضلون، فلا يكونون أرباباً"[2]

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ أي وما كنت متخذ الضالين المضلين أعواناً وأنصاراً، والخطاب للرسول ﷺ، والمعنى وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم، فإنهم إذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة"[3]

تخاطب هذه الآية العقل، وتتلطف بكل وسيلة في إقناع الخلق، وذلك بعدم استحقاق إبليس وذريته أن يكونوا أولياء، ففضلاً عن فسقهم عن أمر ربهم ﷻ، فالله ﷻ ما أشهدهم خلق السماوات والأرض، ولا أشهد بعضهم خلق بعض، ولا استعان بهم حين خلق الخلق، فكيف اتخذتموهم شركاء من دون الله ﷻ؟!

---

[1] تفسير ابن كثير (5/ 169).
[2] محاسن التأويل للقاسمي (7/ 42).
[3] التفسير المنير (15/ 274).

قال الحسن البصري رحمه الله: "إن من أخلاق المؤمن قوةً في دين، وحزمًا في لين، وإيمانًا في يقين، وعلمًا في حلم، وحلمًا في علم، وكيسًا في رفق، وتجملاً في فاقة، وقصدًا في غنىً، وشفقةً في نفقة، ورحمةً للمجهود، وعطاءً للحقوق، وإنصافًا في استقامة، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم في مساعدة من يحب، ولا يَهمز، ولا يغمز، ولا يلمز، ولا يلغو، ولا يلهو، ولا يلعب، ولا يَمشي بالنميمة، ولا يتبع ما ليس له، ولا يجحد الحق الذي عليه، ولا يتجاوز في القدر، ولا يشمت بالقبيحة إن حلت بغيره، ولا يسر بالمصيبة إذا نزلت بسواه"[1]

[1] الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (1/ 306).

الآية الثانية والخمسون: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ الكهف: ٥٢

عاد ﷻ في هذه الآية إلى ترهيب الكافرين بأحوال القيامة، مقرعاً وموبخاً لهم على رؤوس الأشهاد.

يقول البقاعي: "أي واذكر يوم يقول الله ﷻ لهم تهكماً بهم: ﴿ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ﴾ وبيّن أن الإضافة ليست على حقيقتها، بل هي توبيخ لهم فقال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أنهم شركاء، ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ تمادياً في الجهل والضلال، ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ أي لم يطلبوا ويريدوا أن يجيبوهم إعراضاً عنهم استهانة بهم، واشتغالاً بأنفسهم، فضلاً عن أن يعينوهم، ولما كانوا في غاية الاستبعاد لأن يحال بينهم وبين معبوداتهم، قال في مظهر العظمة: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم ﴾ أي المشركين والشركاء ﴿ مَّوْبِقًا ﴾ أي هلاكاً أو موضع هلاك فاصلاً حائلاً بينهم، مهلكاً قوياً عميقاً ثابتاً حفيظاً، لا يشذ عنه منهم أحد، وإنما فسرته بذلك لأنه قوله ﷻ: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ يونس: ٢٨، أي بالقلوب، أي جعلنا ما كان بينهم من الوصلة عداوة، ومثل قوله ﷻ: ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٣٨﴾ ﴾ الأعراف: ٣٨، ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ﴿٨٦﴾ ﴾ النحل: ٨٦، ونحوه لأن المعنى ذلك كله أنه يبدل ما كان بينهم من الود في الدنيا

والوصلة ببغض وقطيعة كما قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴿٢٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٥، وأن كل فريق يطلب للآخر الهلاك، فاقتضى ذلك اجتماع الكل فيه"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ أي واذكر لهم أيها الرسول ما يحدث وقت الاجتماع يوم الجمع في القيامة، حيث يقول الله ﷻ للكافرين تأنيباً وتوبيخاً: نادوا لنصرتكم من زعمتم أنهم شركائي، لينقذوكم مما أنتم فيه، فدعوهم، فلم يجيبوهم بشيء، ولم ينفعوهم في شيء، كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ الأنعام: ٩٤

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ أي وجعلنا بين المشركين وآلهتهم المزعومة مكاناً سحيقاً ومهلكاً، أي موضعاً للهلاك، وهو نار جهنم أو وادٍ في جهنم، **قال ابن عباس رضي الله عنهما**: "الموبق: الحاجز"، وقال ابن الأعرابي: "كل شيء حاجز بين شيئين فهو موبق"، والمعنى أن الله ﷻ بيَّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير"[2]

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (12/ 78- 79)

[2] التفسير المنير (15/ 274).

قال الحسن البصري رحمه الله: " اقطع يا ابن آدم من الدنيا أكثر همك أو لتقطعن حبالها بك فينقطع ذكر ما خلقت له من نفسك ويزيغ عن الحق قلبك، وتميل إلى الدنيا فترديك، وتلك منازل سوء بين ضرها منقطع نفعها مفضية والله بأهلها إلى ندامة طويلة، وعذاب شديد فلا تكونن يا ابن آدم مغترا، ولا تأمن ما لم يأتك الأمان منه، فإن الهول الأعظم ومفظعات الأمور أمامك، لم تخلص منها حتى الآن ولا بد من ذلك المسلك وحضور تلك الأمور إما يعافيك من شرها وينجيك من أهوالها وإما الهلكة، وهي منازل شديدة مخوفة محذورة مفزعة للقلوب"[1]

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 140).

الآية الثالثة والخمسون: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ الكهف: ٥٣

يوم القيامة يرى الكافرون النار عياناً، فيوقنون أنهم داخلوها وواقعون فيها، لا مهرب لهم منها، ولا مكان غيرها يأوون إليه، فقد أحاطت بهم النار من كل جانب.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ ﴾ والظن هنا بمعنى العلم واليقين، ﴿ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي إذا عاين المشركون النار، تحققوا لا محالة أنهم واقعون فيها، مخالطوها وداخلون فيها حتماً لا محالة، ﴿ وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي معدلاً، والمعنى ليس لهم طريق الإمكان ولا مكان يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها؛ لإحاطتها بهم من كل جانب"[1]

يقول الرازي في تفسير الظن: "أن هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد، فيظنون أنهم مواقعوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة؛ لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها، كما قال ﷻ: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ الفرقان: ١٢ [2]

[1] التفسير المنير (15/ 275).
[2] التفسير الكبير للرازي (21/ 474).

رؤية العذاب تبعث في القلب الخوف منه قبل وصوله، فعندما لا يُسمَع لهم عذر، ولا تنفع لهم حيلة، ولا تُقبَل فيهم شفاعة، ولا يؤخذ منهم فداء، وهذا كله يضاعف أثر العذاب عليهم بعد نزوله.

قال الحسن البصري رضي الله عنه: " إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غداً لك فكن في غد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم"[1]

[1] اقتضاء العلم والعمل للخطيب البغدادي (1/ 113)

الآية الرابعة والخمسون: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ الكهف: ٥٤

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أي ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم كل ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم، كي يعرفوا طريق الحق والهدى، ولا يضلوا عنه. وتصريف الأمثال يقتضي التكرار لمختلف وجوه البيان.

﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أي ومع هذا البيان الشافي والتوضيح الكافي، فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق والباطل، إلا من هدى الله ﷻ وبصره لطريق النجاة"[1]

هذا دليل على كثرة الجدال في الإنسان وحبه له، لسعة حيلته، وقوة ذكائه، واختلاف نزعاته وأهوائه.

من رحمة الله ﷻ وحكمته أن جعل في هذا القرآن ذكر الشيء الواحد بأكثر من أسلوب، وعرض المعنى للناس بصيغ متنوعة، وضرب الأمثال لهم ليتذكروا ويتعظوا بذلك ويؤمنوا، ولكن الإنسان هو أكثر المخلوقات خصومة في الباطل، وجداله أكثر من جدال كل مجادل، فمعظم البشر لم ينتفعوا من هذه الآيات المتنوعة والأمثال المضروبة لهم بسبب جدالهم بالباطل.

[1] التفسير المنير (15/ 279- 280).

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: "لو قيل لك يا مرائي لغضبت ولشق عليك وتشكو فتقول قال لي يا مرائي، عساه قال حقاً من حبك للدنيا تزينت للدنيا وتصنعت للدنيا ثم قال: اتق ألا تكون مرائياً وأنت لا تشعر، تصنعت وتهيأت حتى عرفك الناس فقالوا هو رجل صالح فأكرموك وقضوا لك الحوائج ووسعوا لك في المجالس وإنما عرفوك بالله عز وجل ولولا ذلك لهنت عليهم"[1]

[1] صفة الصفوة (1/ 429).

الآية الخامسة والخمسون: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ الكهف: ٥٥

تبين هذه الآية أن السبب المانع للناس من الإيمان والاستغفار بعدما جاءهم الهدى هو طلبهم أن يحلَّ بهم مثل العذاب الذي نزل بالذين من قبلهم، أو يأتيهم العذاب عياناً يشاهدونه وينظرون إليه.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي وما منع المشركين من أهل مكة من الإيمان بالله ﷻ، حين شاهدوا البينات والأدلة الواضحة على وجود الله ﷻ وتوحيده، واستغفار ربهم ﷻ والتوبة إليه من ذنوبهم إلا طلبهم أحد أمرين:

أما أن تأتيهم سنة الأولين القدماء من إحاطة العذاب بهم وإبادتهم وهو عذاب الاستئصال، كما قال جماعة لنبيهم: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ العنكبوت: ٢٩، وقالت قريش: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأنفال: ٣٢، وأما أن يروا العذاب عياناً مواجهة ومقابلة"[1]

يقول الرازي: "والمعنى أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا"[2]

---

[1] التفسير المنير (15/ 280).

[2] التفسير الكبير للرازي (21/ 475).

وقال في الكشاف: "وما منع الناس الإيمان والاستغفار إلا انتظار أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك، أو انتظار أن يأتيهم عذاب الآخرة قُبُلاً أي عياناً"[1]

قال ابن الجوزي: "فإن قيل إذا كان المراد بسنة الأولين العذاب، فما فائدة التكرار بقوله أو يأتيهم العذاب؟ فالجواب أن سنة الأولين أفادت عذاباً مبهماً يمكن أن يتراخى وقته وتختلف أنواعه، وإتيان العذاب قبلاً أفاد القتل يوم بدر، قال مقاتل سنة الأولين عذاب الأمم السالفة، أو يأتيهم العذاب قبلاً أي عياناً قتلاً بالسيف يوم بدر"[2]

لا تتعجب من إعراض الخلق! فبعض الناس لن يؤمنوا ولن يستغفروا إلا إذا نزل بهم عذاب دنيوي مهلك، أو في مواجهة عذاب الآخرة وعلى عتبات النار، فأكثر المعرضين عن الله ﷻ لا يُقبِلون عليه إلا بعد نزول البلاء، وهؤلاء قال فيهم ابن عطاء الله السكندري: "من لم يرحل إليه بسلاسل الإنعام، سيق إليه بسلاسل الامتحان"

[1] الكشاف للزمخشري (2/ 729)

[2] زاد المسير لابن الجوزي (3/ 92).

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: "لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه، فيستخرج منه ما يخبر به من عمله، لعله يكون كثير الطواف فيقول: ما كان أحلى الطواف الليلة، أو يكون صائمًا فيقول: ما أثقل السحور أو ما أشد العطش، فإن استطعت ألا تكون محدثًا ولا متكلمًا ولا قارئًا، إن كنت بليغًا قالوا: ما أبلغه وأحسن صوته، فيعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسن الصوت قالوا: ليس يحسن يحدث وليس صوته بحسن، أحزنك وشق عليك فتكون مرائيًا، وإذا جلست فتكلمت ولم تبال من ذمك ومن مدحك فتكلم"[1]

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 91).

الآية السادسة والخمسون: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الكهف: ٥٦

تبين الآية الكريمة أن مهمة الرسل الكرام هي الهداية والدعوة إلى الخير، وتبشير من آمن بهم وعمل صالحاً بالجنة، وإنذار من كفر بهم وعمل سوءاً بالنار، إلا أن الكافرين يكابرون ويطلبون من الرسل دلائل تثبت صدقهم ويجادلونهم مكابرة وعناداً بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه، فهم حين يطلبون المعجزات ويستعجلون العذاب لا يريدون الإيمان، وإنما يستهزئون ويسخرون بآيات الله ﷻ.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي إن مهمة الرسل إما تبشير من آمن بهم بالثواب على الطاعة، وإما إنذار من كذبهم وخالفهم بالعقاب على المعصية لكي يؤمنوا طوعاً.

﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ أي ويجادل الكفار جدالاً بالباطل لا بالحق، ليضعفوا بجدالهم الحق، الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، فهم يقترحون الآيات بعد ظهور المعجزات، ويقولون للرسل: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴿٢٤﴾ ﴾ المؤمنون: ٢٤

﴿ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾ أي اتخذوا آيات الله ﷻ وهي القرآن والحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب هزواً أي استهزاء وسخرية، وهو أشد التكذيب، وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة"[1]

يقول البقاعي: "ولما كان ذلك ليس إلى الرسول ﷺ، إنما هو إلى الإله، بينه بقوله ﷻ: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ﴾ على ما لنا من العظمة التي لا أمر لأحد معنا فيها

﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ بالخير على أفعال الطاعة ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ بالشر على أفعال المعصية، فيطلب منهم الظالمون من أممهم ما ليس إليهم من فصل الأمر ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي يجددون الجدال كلما أتاهم أمر من قبلنا ﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ من قولهم: لو كنتم صادقين لأتيتم بما نطلب منكم، مع أن ذلك ليس كذلك لأنه ليس لأحد غير الله ﷻ من الأمر شيء

﴿ لِيُدْحِضُواْ ﴾ أي ليزلقوا فيزيلوا ويبطلوا ﴿ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ الثابت بالمعجزات المثبتة لصدقهم، ولما كان لكل مقام مقال، ولكل مقال حد وحال، فأتى في الجدال بصيغة الاستقبال، وكان اتخاذ الاستهزاء أمراً واحداً، أتى به ماضياً فقال ﷻ:

﴿ وَٱتَّخَذُوٓاْ ﴾ أي كلفوا أنفسهم أن أخذوا ﴿ ءَايَٰتِي ﴾ بالبشارات التي هي المقصودة بالذات لكل ذي روح ﴿ وَمَآ أُنذِرُواْ ﴾ من آياتي، بني للمفعول؛ لأن

[1] التفسير المنير (15/ 281).

الفاعل معروف، والمخيف الإنذار، ﴿ هُزُوًا ﴾ مع ما بعدهما جداً عن ذلك، فلا بالرغبة أطاعوا، ولا للرهبة ارتاعوا، فكانوا شراً من البهائم"[1]

قال مالك بن دينار ﷺ: "يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض؛ فإن الله ﷻ ينزل الغيث من السماء إلى الأرض، فيصيب الحش، فتكون فيه حبة، فلا يمنعها نتن موضعها: أن تهتز، وتخضر، وتحسن؛ فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم، أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟"[2]

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (12/ 89- 90)

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 358).

الآية السابعة والخمسون: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الكهف: ٥٧

"لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله ﷻ البينة، وحججه الساطعة، وشواهد عظمته العقلية والنقلية، فتعامى عنها وتناساها ولم يلقِ لها بالاً، ونسي ما عمله من الأفعال القبيحة، ولم يفكر في عاقبتها، وذلك بسبب وجود أغطية على قلوبهم تمنع وصول الإيمان، وصمم في آذانهم يمنع سماع الحق، فهم مهما دُعوا إلى الحق فلن يستجيبوا له مطلقاً"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي لا أحد أظلم ممن أعرض عن آيات الله ﷻ، ونسي ما قدم من الكفر والمعصية، أو لا ظلم أعظم من كفر من يشاهد الآيات والبينات الدالة على الحق والإيمان، ثم يعرض عنها، ومع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يداه من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة، وعلى رأسها الكفر بالله ﷻ، والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم.

[1] التفسير المنهجي (6/ 52)

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي وعلة إعراضهم ونسيانهم بسبب جعل أغطية وغشاوة على قلوب هؤلاء، لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان، وجعل صمم معنوي في آذانهم عن الرشاد وسماع الحق وتدبره.

﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ أي وإن دعوت يا محمد هؤلاء إلى دعوة الحق والهداية والاستقامة، فلن تجد منهم استجابة، ولن يهتدوا بهديك هدي القرآن أبداً مهما قدمت من الدلائل وتأملت الخير منهم"[1]

الجزاء من جنس العمل، أعرضوا عن الله ﷻ بملء إرادتهم، فأعرض الله ﷻ عنهم، ونسوا ما قدمت أيديهم من ذنوب ومعاصي، فنسيهم علام الغيوب ﷻ، وجعل على قلوبهم أغلفة وأغطية وغشاوة تحول بينهم وبين الإيمان.

قال ابن مسعود ﷺ: "عليكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضه ذهاب أهله، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يُقبض، أو متى يُفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقواماً يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله ﷻ، وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، والتنطع، والتعمق، وعليكم بالعتيق"[2]

[1] التفسير المنير (15/ 282).
[2] المعجم الكبير للطبراني (9/ 170).

الآية الثامنة والخمسون: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨ ﴾ الكهف: ٥٨

"فالله ﷻ كثيرة المغفرة، واسع الرحمة، لو يؤاخذ الناس لما يفعلونه من الذنوب والمعاصي لعجل لهم العقوبة، ولأهلكهم جميعاً، ولكنه يؤخر عذابهم رحمة بهم، وإمهالاً لعل منهم من يرجع أو يؤمن، ولكن حان وقت عذابهم سواء أكان ذلك في الدنيا؛ كما حصل للمشركين في بدر ونحوها، أم كان في الآخرة، فإنهم لن يجدوا من العذاب منجى ولا ملجأ"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ ﴾ أي وربك يا محمد غفور ستار، ذو رحمة واسعة، لو يؤاخذ الناس فوراً بما كسبوا من السيئات واقترفوا من الخطيئات، لعجل لهم العذاب في الدنيا، على وفق أعمالهم. والغفور البليغ بالمغفرة، فهي صيغة مبالغة، وذو الرحمة الموصوف بالرحمة.

﴿ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴾ أي إن الله ﷻ أراد غير ذلك من تعجيل العذاب، وجعل للعذاب موعداً حدده هو إما يوم القيامة، وإما في الدنيا

[1] التفسير المنهجي (6/ 52)

وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح، لن يجدوا عنه ملجأ ومنجي، وليس له محيد ولا معدل عنه"[1]

والخلاصة: إن تأخير العقاب أو العذاب إمهال لا إهمال.

قال الحسن البصري رحمه الله: "ما نظرت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا نهضت على قدمي حتى أنظر أعلى طاعة أو على معصية؟ فإن كانت طاعته تقدّمت، وإن كانت معصية تأخرت"[2]

[1] التفسير المنير (15/ 283).
[2] تفسير ابن رجب الحنبلي (2/ 257).

الآية التاسعة والخمسون: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ الكهف: ٥٩

لما كانت سنة الله ﷻ في القرون الماضية والأمم الخالية من الكافرين الإهلاك؛ أعقب ذلك ببيان علة الإهلاك تعريضاً بالمشركين الذين ظنوا أنهم أفلتوا من العذاب لتأخره عليهم.

قال ابن كثير: "﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر"[1]

ويقول البقاعي: "وجعلنا بما لنا من العظمة لإهلاكهم بالفعل وقتاً نحله بهم فيه، ومكاناً لم نخلفه، كما أنا جعلنا لهؤلاء موعداً في الدنيا بيوم بدر والفتح وحنين ونحو ذلك، وفي الآخرة لن نخلفه"[2]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي وتلك القرى، أي أهلها من الأمم الغابرة، كعاد وثمود ومدين وقوم لوط، أهلكناهم لما ظلموا بسبب كفرهم وعنادهم، وجعلنا لهلاكهم موعداً لا محيد عنه، ومدة معلومة لا تزيد ولا تنقص، أي كذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم رسولكم، ولستم بأعز

[1] تفسير ابن كثير (5/ 173).
[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (12/ 94).

علينا منهم. والمهلك: الإهلاك أو وقته، والموعد: وقت أو مصدر. والمراد: إنا عجلنا هلاكهم، ومع ذلك حددنا له وقتاً، رجاء أن يتوبوا"[1]

ومن رحمته ﷻ ألا يعجل المؤاخذة أو العقاب على الكفر والمعاصي والذنوب والخطايا، ولكنه ﷻ يمهل ويؤخر، رجاء أن يتوب العباد ويرجعوا إلى الله ﷻ، ويجعل للعذاب موعداً أي أجلاً مقدراً يؤخرون إليه، كما قال ﷻ: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٦٧﴾ ﴾ الأنعام: ٦٧، وقال: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ الرعد: ٣٨، أي إذا حل لم يتأخر عنهم، إما في الدنيا وإما في الآخرة، لا ملجأ ولا منجي للناس حينئذ من ذلك العذاب.

قال ابن الجوزي ﷺ: "اعلم أن الزمان لا يثبت على حال، كما قال ﷻ:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي.. فالسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال، وهو تقوى الله ﷻ فإنه إن استغنى زانته، وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي تمت النعمة عليه، وإن ابتلى حملته.. ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه، لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة"[2]

[1] التفسير المنير (15/ 283).
[2] صيد الخاطر (1/ 137).

الفقرة السادسة

قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح

فتنة العلم

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ
مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا
نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ
ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ
أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ
أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ
فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ
رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ
أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ
ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا
حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ

جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾
قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا
حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ
شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾
قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا
﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن
يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ
لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ
مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ
فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا
﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا
وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ

كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ الكهف: ٦٠ - ٨٢

الآية الستون: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ الكهف: ٦٠

سبب القصة:

قال رسول الله ﷺ: "قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذا لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب، فكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً، فتجعله في متكل فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ.."[1]

قال الرازي: "وهذا إخبار من موسى عليه السلام بأنه وطَّن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر من لأجل طلب العلم، وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحقَّ له ذلك"[2]

"هذه هي القصة الثالثة التي ذكرها الله عز وجل في هذه السورة بعد قصة أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين والأموال، وهي تلتقي أيضاً مع ما ذكره الله سبحانه وتعالى من تشبيه الحياة الدنيا بماء السماء وتفاخر الناس بالمال والبنين، كما تلتقي معهما في نبذ الافتخار والتكبر والتعالي على الآخرين، ليكون ذلك درساً بليغاً وعظة لرؤساء قريش الذين طلبوا تخصيص مجلس لهم، وطرد الفقراء والمستضعفين من الجلوس معهم في مجلس النبي ﷺ أنفةً وكبرياء واستعلاء.

---

[1] صحيح البخاري (6/ 91).

[2] التفسير الكبير للرازي (21/ 479).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ أي واذكر أيها النبي حين قال موسى عليه السلام لفتاه لا أزال سائراً حتى أصل إلى المكان الذي فيه مجمع البحرين، ولو أني أسير حقباً[1] أي دهراً من الزمان.

مجمع البحرين: هو مكان اجتماع البحرين وصيرورتهما بحراً واحداً، وهما في رأي الأكثرين بحر فارس والروم، أي ملتقى البحر الأحمر بالمحيط الهندي عند باب المندب، وقيل: غنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلنطي، أي ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي عند مضيق جبل طارق عند طنجة، وهو المكان الذي وعد فيه موسى عليه السلام بلقاء الخضر"[2]

إن قوة تصميم وإرادة وتعهد على الاستمرار حتى يبلغ مجمع البحرين، طلباً للعلم أو يمضي دهراً طويلاً حتى يجد هذا العالم، وفي ذلك مثابر في طلب العلم.

قال ابن القيم رحمه الله: " ليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه"[3]

[1] والحقب: ثمانون أو سبعون سنة، والمراد: زمان غير محدود من الدهر.
[2] التفسير المنير (15/ 291- 292)
[3] الداء والدواء (1/ 201).

الآية الحادية والستون: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾ الكهف: ٦١

"لما وصل موسى عليه السلام وفتاه إلى مجمع البحرين، نام موسى عليه السلام عند صخرة، وهناك أحيا الله سبحانه وتعالى الحوت ودخل البحر، وسلك طريقاً في البحر جعله الله سبحانه وتعالى كالنفق، ولم يعد الماء في الموضع الذي سلكه الحوت كما كان، بل بقي كالنفق ليدل موسى عليه السلام على موضع لقائه بالعبد الصالح"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي وصلا مجمع البحرين مكان اللقاء مع العبد الصالح، نسيا حوتهما، فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً، وغطاه الماء، حتى صار كالقنطرة عليه، وكان ذلك للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً"[2]

قال ابن القيم رحمه الله: "من العجب أن الإنسان يهون عليه التحفُّظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم، وغير ذلك.. ويصعب عليه التحفُّظ من حركة لسانه، وكم نرى من رجلٍ متورّعٍ عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يُبالي ما يقول"[3]

---

[1] التفسير المنهجي (55/6)

[2] التفسير المنير (15/ 292).

[3] الداء والدواء لابن القيم (1/ 159).

الآية الثانية والستون: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الكهف: ٦٢

بعد أن استيقظ موسى عليه السلام سار ومعه فتاه بقية اليوم والليل، فلما كانا في الغد، وتجاوزا الموضع المحدد للقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح شعرا بالتعب، وطلب موسى عليه السلام من فتاه أن يقدم الطعام، وهو الحوت.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي فلما تجاوز موسى عليه السلام وفتاه يوشع بن نون مجمع البحرين حيث نسيا الحوت فيه، وسارا بقية اليوم والليلة، وفي اليوم التالي في ضحوة الغد أحس موسى عليه السلام بالجوع، فقال لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا تعباً من هذا السفر"[1]

﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾

قال القرطبي: "وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وان ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط"[2]

قال ابن القيم رحمه الله: " إذا خرجت من عدوك لفظة سفه فلا تُلْحِقْها بمثلها تُلْقِحها، ونسل الخصام مذموم"[3]

---

[1] التفسير المنير (15/ 292).
[2] تفسير القرطبي (11/ 14).
[3] الفوائد لابن القيم (1/ 50)

الآية الثالثة والستون: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا

﴿٦٣﴾ الكهف: ٦٣

عندما طلب موسى عليه السلام من فتاه الطعام، فقال لموسى عليه السلام: أتذكر حين نمنا على الصخرة بالأمس، لقد خرج الحوت من الوعاء وسار في البحر تاركاً خلفه أثر مسيره في الماء كالنفق، وهذا أمر عجيب حقاً أن يحصل في الماء، ولقد نسيت أن أخبرك بأمر ما حصل للحوت، ولم ينسني ذلك إلا الشيطان.

يقول الصابوني: "قال الفتى يوشع بن نون حين طلب موسى عليه السلام منه الحوت للغداء أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب؟ لقد خرج الحوت من المتكل ودخل البحر، وأصبح عليه مثل الكوة، وقد نسيت أن أذكر لك ذلك حين استيقظت، وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة، واتخذ الحوت طريقه في البحر، وكان أمره عجباً، يتعجب الفتى من أمره؛ لأنه كان حوتاً مشوياً فدبت فيه الحياة، ودخل البحر"[1]

يقول الزمخشري: "قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب حتى اعتراه النسيان"[2]

ويقول أبو السعود: "والحال وإن كانت غريبة لا يُعهد نسيانها لكنه لما تعوَّد بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وألفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها"[3]

---

[1] صفوة التفاسير (2/ 182).

[2] الكشاف للزمخشري (2/ 733).

[3] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم تفسير أبي السعود (5/ 233).

يقول وهبة الزحيلي: "أي قال له فتاه: أرأيت أي أخبرني ما وقع لي حين لجأنا إلى الصخرة في مجمع البحرين؟ فإني نسيت أن أخبرك بما حدث من أمر الحوت، فإنه قد اضطرب وعاد حياً ووقع في البحر، وما أنساني ذكر ذلك إلا الشيطان، واتخذ الحوت مسلكه في البحر عجباً، والمراد بالنسيان: اشتغال قلب الإنسان بوساوس الشيطان التي هي من فعله"[1]

قال ابن القيم رحمه الله: " للعبد ستر بينه وبين الله عز وجل، وستر بينه وبين الناس؛ فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله عز وجل هتك الله عز وجل الستر الذي بينه وبين الناس."[2]

[1] التفسير المنير (15/ 293).
[2] الفوائد لابن القيم (1/ 31).

الآية الرابعة والستون: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ الكهف: ٦٤

قال الشوكاني: "قال موسى عليه السلام لفتاه: ذلك الذي ذكرت من فقد الحوت في ذلك الموضع هو الذي كنا نطلبه، فإن الرجل الذي نريده هو هناك، فرجعا على الطريق التي جاءا منها يقصان أثرهما لئلا يخطئا طريقهما"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ ﴾ أي قال موسى عليه السلام: هذا هو الذي نطلب؛ لأنه أمارة الفوز بما نقصد.

﴿ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ أي رجعا على طريقهما يقصان آثار مشيهما، ويقفوان أثرهما"[2]

قال البقاعي: "إن هذا يدل على أن الأرض كانت رملاً لا علامة عليها"[3]

قال عبد الله بن وهب رحمه الله: "كل ملذوذ إنما له لذة واحدة، إلا العبادة، فإن لها ثلاث لذات: إذا كنت فيها.. وإذا تذكرتها.. وإذا أعطيت ثوابها"[4]

---

[1] فتح القدير للشوكاني (3/ 353)

[2] التفسير المنير (15/ 293).

[3] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (12/ 105)

[4] موسوعة الفقه الإسلامي (2/ 413).

الآية الخامسة والستون: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ الكهف: ٦٥

"فوجدا الرجل الصالح الذي حضر موسى عليه السلام للقائه، وهو الخضر، وكان متغطياً بثوب، فسلم عليه موسى عليه السلام فقال: وأني بأرضك السلام؟ استغرب من سماعه لفظ السلام وهو بأرض لا يعلم وجود مسلمين فيها.

ومدح النص الخضر مخبراً أن الله سبحانه وتعالى وهبه نعمة عظيمة وفضلاً كبيراً، وعلمه علماً امتاز به حتى على النبي موسى عليه السلام وهو كرامة من الله سبحانه وتعالى لهذا العبد الصالح"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي وجد موسى عليه السلام وفتاه عند الصخرة في مجمع البحرين حين عادا إليها عبداً صالحاً من عباد الله، قال الأكثرون: إن ذلك العبد هو الخضر، وكان مسجى بثوب أبيض، فسلم عليه موسى عليه السلام، فقال الخضر: وأني بأرضك السلام؟!

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ يدل على أن تلك العلوم حصلت له من عند الله عز وجل من غير وساطة"[2]

قال سفيان الثوري رحمه الله: "إياكم والبطنة فإنها تقسّي القلب، واكظموا الغيظ، ولا تكثروا الضحك فإنه يميت القلوب"[3]

---

[1] التفسير المنهجي (56/6)

[2] التفسير المنير (15/ 294).

[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 36).

الآية السادسة والستون: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ الكهف: ٦٦

تتحدث الآية عن أدب موسى عليه السلام وهو يطلب العلم من الخضر بعد أن وجده عند مجمع البحرين.

يقول البقاعي: "قال له موسى عليه السلام طالباً منه على سبيل التأدب والتلطف بإظهار ذلك في قالب الاستئذان: هل أتبعك اتباعاً بليغاً حيث توجهت؛ والاتباع: الإتيان لمثل فعل الغير لمجرد كونه آتياً به؛ وبيّن أنه لا يطلب منه غير العلم بقوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ وزاد في التلطف بالإشارة إلى أنه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان بل جوامع منه يسترشد بها إلى باقيه فقال: ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ وبناه للمفعول لعلم المخاطبين لكونهم من الخلص بأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، وللإشارة إلى سهولة كل أمر على الله عز وجل ﴿ رُشْدًا ﴾ أي علماً يرشدني إلى الصواب فيما أقصده، ولا نقص في تعلم نبي من نبي، وأتى عليه السلام في سؤاله له بهذه الأنواع من الآداب والإبلاغ في التواضع لما هو عليه من الرسوخ في العلم، لأن كل من كانت إحاطته بالعوم أكثر، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد، فكان تعظيمه لأرباب العلوم أكمل"[1]

قال وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "قال: أنا موسى، قال: موسى نبي إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أصحبك وأرافقك لتعلمني مما علمك الله عز وجل شيئاً

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (12/ 107- 108)

أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح؟ وهذا سؤال تلطف وأدب، لا إلزام فيه ولا إجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم"[1]

حرص موسى عليه السلام على التعلم من علم العبد الصالح الذي هو من تعليم الله عز وجل له، مزيداً من العلم ولو استغرق ذلك بعضاً من الوقت، وصبره على ذلك بدليل: أن موسى عليه السلام لم يحدد مدة من الزمن يتعلم من خلالها، أو مقداراً من العلم يتعلمه من الخضر حينما طلب منه أن يعلمه، بل ترك أمر التعليم ومدته إلى الخضر.

قال الحسن البصري رحمه الله: "يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهنّ قطّ: ليلة تبيت مع أهل القبور ولم تبت ليلة قبلها، وليلة صبيحتها يوم القيامة، ويوم يأتيك البشير من الله تعالى، إمّا بالجنّة أو النّار، ويوم تعطى كتابك بيمينك وإمّا بشمالك"[2]

[1] التفسير المنير (15/ 294).
[2] أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور (1/ 156).

الآية السابعة والستون: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾

الكهف: ٦٧

"أي قال الخضر لموسى عليه السلام: إنك لن تقدر على مصاحبتي، ولن تطيق صبراً ما تراه مني؛ لأني على علم من الله سبحانه وتعالى علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من الله سبحانه وتعالى، علمكه لا أعلمه، وكل منا مكلف بأمور من الله سبحانه وتعالى دون صاحبه، فلا تقدر على صحبتي"[1]

قال ابن تيمية رحمه الله: "فالمؤمن دائماً في نعمة من ربه عز وجل تقتضي شكراً وفي ذنب يحتاج إلى استغفاراً"[2]

[1] التفسير المنير (15/ 294).
[2] مجموع الفتاوي لابن تيمية (16/ 187).

الآية الثامنة والستون: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾

﴿ الكهف: ٦٨

"أي أؤكد لك أنك لن تصبر على شيء تراه مني، ولم تطلع على حكمته ومصلحته الباطنة وحقيقة أمره التي اطلعت أنا علينا دونك. فقوله: ﴿ خُبْرًا ﴾ أي لم يحط به خبرك، ولم تُلِمَّ بوجه الحكمة فيه وطريق الصواب"[1]

سبب قلة الصبر هو قلة العلم، ولو زاد علم العبد بحكمة الرب ﷻ ولطفه به لصَبَر، قال ابن تيمية رحمه الله: "ولا تقع فتنة إلا من ترك ما أمر الله ﷻ به، فإنه ﷻ أمر بالحق وأمر بالصبر، فالفتنة إما من ترك الحق، وإما من ترك الصبر"[2]

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: "أقرب الزهاد من الله ﷻ أشدهم خوفاً، وأحب الزهاد إلى الله ﷻ أحسنهم له عملاً، وأفضل الزهاد عند الله ﷻ أعظمهم فيما عنده رغبة، وأكرم الزهاد عليه أتقاهم له، وأتم الزهاد زهداً أسخاهم نفساً وأسلمهم صدراً، وأكمل الزهاد زهداً أكثرهم يقيناً"[3]

---

[1] التفسير المنير (15/ 294).
[2] الاستقامة لابن تيمية (1/ 39).
[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 70).

الآية التاسعة والستون: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ ﴾ الكهف: ٦٩

"أي قال موسى عليه السلام: ستجدني بمشيئة الله عز وجل صابراً على ما أرى من أمورك، ولا أخالفك في شيء"[1]

تقديم المشيئة تأدب مع الحالق ﷻ، واستعانة به على الصبر، أدب يعلمنا إياه الأنبياء.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: "والحزن حزنان: حزن لك وحزن عليك؛ فالحزن الذي هو لك حزنك على الآخرة، والحزن الذي هو عليك حزنك على الدنيا وزينتها"[2]

[1] التفسير المنير (15/ 294).
[2] ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (2/ 145).

الآية السبعون: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الكهف: ٧٠

"أي قال الخضر شارطاً على موسى عليه السلام بقوله: إن سرت معي، فلا تسألني عن أمر يحدث، حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني"[1]

يقول الزمخشري: "فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غَبِيَ عليك وجه صحته، فحميت[2] وأنكرت في نفسك ألا تفاتحني بالسؤال، ولا تراجعني فيه، حتى أكون أنا الفاتح عليك. وهذا من آداب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع"[3]

قال ابن القيم رحمه الله: "فالجنة لا يدخله خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهّر في الدنيا ولقي الله سبحانه وتعالى طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوّق، ومن لا يتطهر في الدنيا؛ فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها حتى إن أهل الإيمان إذا جاوزوا الصراط حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهذّبون وينقّون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونفوا أُذِن لهم دخول الجنة"[4]

---

[1] التفسير المنير (15/ 295).
[2] أنفت وسخطت: مختار الصحاح ص 176 مادة حمى
[3] الكشاف للزمخشري (2/ 735).
[4] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم (1/ 56).

الآية الحادية والسبعون: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾ الكهف: ٧١

تتحدث الآية عن بداية رحلة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، بعدما أخذ العبد الصالح عليه العهد على ألا يبادره بسؤال عما يرى من أمور مستنكرة حتى يبادره هو ببيانها. والبداية بقصة السفينة وما أحدثه فيها من خرق فعله الخضر وأنكره موسى عليه السلام عليه.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ أي فانطلق موسى عليه السلام وصاحبه مع الخضر، انطلقا يمشيان على ساحل البحر، يطلبان سفينة، فمرت بهما سفينة، فكلَّمَا أصحابها أن يركبا فيها معهم، فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير أجر، تكرمة للخضر، فلما ركبا وسارت بهم السفينة وسط البحر، قام الخضر بخرقها بفأس، مستخرجاً لوحاً من ألواحها، ثم رقعها.

﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ أي لم يتمالك موسى عليه السلام نفسه وقال منكراً عليه: أخرقتها لتغرق أهلها، أي ليصير الخرق سبباً في إغراق أهلها، لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً"[1]

[1] التفسير المنير (15/ 295).

قال القاسمي: "ولم يقل لتغرقنا، فنسي نفسه واشتغل بغيره، في الحالة التي كل أحد فيها يقول نفسي نفسي لا يلوي على مال ولا ولد، وتلك حالة الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم"[1]

أن قلوب المؤمنين مجبولة على إنكار المنكر، ولا تتحمل الصبر عليه، فموسى عليه السلام مع أنه وعد الرجل الصالح بالصبر على ما يراه منه، إلا أنه لم يصبر على المنكر حين رآه.

قال يحيي بن معاذ رضي الله عنه: "القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها ومغارفها ألسنتها، فانتظر الرجل حتى يتكلم، فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه من بين حلو وحامض وعذب وأجاج، يُخبرك عن طعم قلبه: اغتراف لسانه"[2]

[1] محاسن التأويل تفسير القاسمي (7/ 54).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (10/ 63).

الآية الثانية والسبعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

﴿٧٢﴾ الكهف: ٧٢

"أي قال الخضر لموسى عليه السلام: ألم أقل سابقاً لك يا موسى: إنك لن تتمكن من الصبر معي على ما ترى مني من أفعال"[1]

قال ابن الجوزي رحمه الله: "اعلم أن الجوارح كالسواقي توصل إلى القلب الصافي والكدر، فمن كفّها عن الشر جلت معدة القلب بما فيها من الأخلاط، فأذابتها وكفى بذلك حمية، فإذا جاء الدواء صادف محلاً قابلاً، ومن أطلقها في الذنوب أوصلت إلى القلب وسخ الخطايا وظلم المعاصي، فلما وُضِع الدواء كان بينه وبين القلب حجاب"[2]

[1] التفسير المنير (15/ 295).
[2] التبصرة لابن الجوزي (2/ 208).

الآية الثالثة والسبعون: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ ﴾ الكهف: ٧٣

"قال موسى عليه السلام للخضر: لقد نسيت ما عاهدتك عليه من عدم الإنكار عليك فلا تؤاخذني بهذا النسيان، ولا تكلفني مشقة في صحبتي إيَّاك، وعاملني باليسر بترك اللوم والمؤاخذة، فقبل الخضر عذره"[1]

يقول ابن عاشور: "اعتذر موسى عليه السلام بالنسيان وكان قد نسي التزامه بما غشي ذهنه من مشاهدة ما ينكره، والنهي مستعمل في التعطف والتماس عدم المؤاخذة؛ لأنه قد يؤاخذه على النسيان من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر، فالحزامة الاحتراز من صحبة من يطرأ عليه النسيان، ولذلك بنى كلام موسى عليه السلام على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان ولم يُبن على الاعتذار بالنسيان، كأنه رأى نفسه محقوقاً بالمؤاخذة، فكان كلاماً بديع النسج في الاعتذار، والمؤاخذة: مفاعلة من الأخذ، وهي هنا للمبالغة لأنها من جانب واحد كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِمۡ مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ ٦١ ﴾ النحل: ٦١، وما مصدرية، أي لا تؤاخذني بنسياني"[2]

[1] التفسير المنهجي (6/ 60).
[2] التحرير والتنوير (15/ 376).

ويقول القاسمي: "﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أي لا تحمل عليَّ من أمري في تحصيل العلم منك عسراً لئلا يلجئني إلى تركه. أي لا تعسر عليَّ متابعتك، بل يسرها عليّ بالإغضاء وترك المناقشة"[1]

قال مالك بن دينار رضي الله عنه: "إن الله ﷻ جعل الدنيا دار مفر والآخرة دار مقر فخذوا لمقركم وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، ففي الدنيا حييتم ولغيرها خلقتم؛ إنما مثل الدنيا كالسم أكله من لا يعرفه واجتنبه من عرفه ومثل الدنيا مثل الحية مسها لين وفي جوفها السم القاتل يحذرها ذوو العقول ويهوي إليها الصبيان بأيديهم"[2]

[1] محاسن التأويل تفسير القاسمي (7/ 50).
[2] صفة الصفوة (2/ 168).

الآية الرابعة والسبعون: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ الكهف: ٧٤

بعد حادث خرق الخضر للسفينة، ونزول موسى عليه السلام مع الخضر من السفينة، وسلامتهما من الغرق، بدأت أحداث قصة جديدة في تلك الرحلة؛ وهي قتل العبد الصالح للغلام.

يقول البقاعي: "بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والغصب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا ﴾ لم يبلغ الحلم وهو في غاية القوة ﴿ فَقَتَلَهُۥ ﴾ حين لقيه كما دلت عليه الفاء العاطفة على الشرط ثم أجاب الشرط بقوله مشعراً بأن شروعه في الإنكار في هذه أسرع: ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام: ﴿ أَقَتَلْتَ ﴾ يا خضر ﴿ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ بكونها على الفطرة الأولى من غير أن تدنس بخطيئة توجب القتل ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ قتلتها ليكون قتلك لها قوداً[1]؛ وهذا يدل على أنه كان بالغاً حتى إذا قتل قتيلاً أمكن قتله به إلا أن يكون شرعهم لا يشترط البلوغ، ثم استأنف قوله ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ ﴾ في قتلك إياها ﴿ شَيْـًٔا ﴾ وصرح بالإنكار في قوله: ﴿ نُّكْرًا ﴾ لأنه مباشرة. والخرق تسبب لا يلزم منه الغرق"[2]

يقول ابن عاشور: "وكلام موسى عليه السلام في إنكار ذلك جرى على نسق كلامه في إنكار خرق السفينة، سوى أنه وصف هذا الفعل بأنه نُكُر، وهو بضمتين: الذي

---

[1] القَوَدُ: قَتْلُ القاتل بالقتيل، وسمي قَوَداً لأنه يُقادُ إليه. (المقاييس في اللغة ص867 مادة قود)

[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (12/ 112- 113).

تنكره العقول وتستقبحه. فهو أشد من الشيء الإمر؛ لأن هذا فساد حاصل والآخر ذريعة فساد"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ أي ثم خرجا من السفينة، وسارا يمشيان على الساحل، فأبصر الخضر غلاماً وهذا يشمل الشاب البالغ يلعب مع الغلمان، فقتله بفتل عنقه أو بضرب رأسه بالحائط، أو بغير ذلك، فقال موسى عليه السلام: أتقتل نفساً طاهرة من الذنوب، طيبة لم تخطئ، بغير قتل نفس أي بغير قصاص؟ وخصَّ موسى عليه السلام هذه الحالة من مبيحات القتل؛ لأنها أكثر وقوعاً.

﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ أي لقد أتيت شيئاً منكراً. والنكر في حال القتل أعظم قبحاً من الإمر في حال خرق السفينة؛ لأن قتل النفس أعظم جرماً من خرق السفينة؛ إذ قد لا يحصل الغرق"[2]

هذه رحلة موسى عليه السلام نبي بني إسرائيل مع فتاه يوشع بن نون عليه السلام للقاء العبد الصالح وهو الخضر، لتعليمه التواضع في العلم، وأنه وإن كان نبياً مرسلاً، فقد يكون بعض العباد أعلم منه.

وفي هذا من الفقه رحلة العالم لطلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء، وإن بعدت أقطارهم.

[1] التحرير والتنوير (15/ 377- 378).
[2] التفسير المنير (15/ 296).

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: "لست آمركم بترك الدنيا، آمركم بترك الذنوب، ترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، وأنتم إلى إقامة الفريضة أحوج منكم إلى الحسنات والفضائل"[1]

[1] صفة الصفوة (2/ 297).

الآية الخامسة والسبعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ الكهف: ٧٥

"أي قال الخضر لموسى عليه السلام الذي خالف الشرط: ألم أخبرك أنك لا تتمكن من احتمال ما أفعله، ولن تسكت على ما أقوم به. ويلاحظ أنه زاد هنا لفظ ﴿ لَّكَ ﴾ على ما سبق؛ لأن سبب العتاب أوضح وأقوى بعد التذكير المتقدم، وتكرر المخالفة من موسى عليه السلام للعهد والشرط الذي التزمه، وإن كان قتل الغلام الوضيء الجميل الحسن الذي كان يلعب مع الغلمان في قرية أعظم جرماً وأقبح من خرق السفينة، لذا قال موسى عليه السلام: ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ والنكر أعظم من الإمر في القبح. وهذا إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة؛ لأن إتلاف النفس أخطر من إتلاف المال"[1]

وهذا الرد من الخضر أشد من الأول، لإضافة (لك) التي أفادت مواجهة موسى عليه السلام بكاف الخطاب، وتوجيه الكلام إليه مباشرة.

"ولم تكن هذه المرة الثانية نسياناً من موسى عليه السلام بل كانت عمداً، إذ لم يطق السكوت على قتل لا يعرف له سبباً، فشريعته التي أنزلها الله سبحانه وتعالى إليه لا تأذن بهذا القتل"[2]

[1] التفسير المنير (16/ 8).
[2] التفسير المنهجي (61/6)

قال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: "إلهي أعلم أن لا سبيل إليك إلا بفضلك، ولا انقطاع عنك إلا بعدلك، إلهي كيف أنساك وليس لي رب سواك؟ إلهي لا أقول لا أعود، لا أعود، لأني أعرف من نفسي نقض العهود لكني أقول لا أعود، لعلي أموت قبل أن أعود"[1]

[1] تاريخ بغداد (16/ 306).

الآية السادسة والسبعون: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ الكهف: ٧٦

بعدما أنكر موسى عليه السلام على الخضر قتله للغلام؛ ذكَّره الخضر بما حذره من عدم صبره على ما سيرى من أمور عجيبة، حينها اعتذر موسى عليه السلام وعبّر عن ندمه، ومدح صبر الخضر عليه.

قال الرازي: "حكى ﷻ عن ذلك العالم أنه ما زاد على أن ذكره ما عاهده عليه إلا أنه زاد ههنا لفظة (لك) لأن هذه اللفظة تؤكد التوبيخ، فعند هذا قال موسى عليه السلام ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾ مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته، وهذا كلام نادم شديد الندامة، ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ والمراد منه أنه يمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين أولاً وثانياً، مع قرب المدة"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي قال موسى عليه السلام للخضر: إن اعترضت على شيء يحدث بعد هذا الفعل، أو هذه المرة، فلا تجعلني صاحباً لك، قد أعذرتَ إلي مرة بعد مرة، حيث أكون قد خالفتك إلى الآن مرتين، وهذا كلام نادم شديد الندامة"[2]، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً، فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: "رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث مع

---

[1] التفسير الكبير للرازي (21/ 487).
[2] التفسير المنير (16/ 8).

صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾"[1]

قال يحيى بن معاذ ﷺ: "من أكثر ذكر الموت لم يمت قبل أجله، ويدخل عليه ثلاث خصال من الخير: أولها المبادرة إلى التوبة، والثاني القناعة برزق يسير، والثالث النشاط في العبادة، ومن حرص على الدنيا فإنه لا يأكل فوق ما كتب الله ﷻ له، ويدخل عليه من العيوب ثلاث خصال: أولها أن تراه أبداً غير شاكر لعطية الله ﷻ له، والثاني لا يواسي بشيء مما قد أعطي من الدنيا، والثالث يشتغل ويتعب في طلب ما لم يرزقه الله ﷻ حتى يفوته عمل الدين"[2]

[1] السنن الكبرى للنسائي (10/ 165).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (10/ 66).

الآية السابعة والسبعون: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ ﴾ الكهف: ٧٧

وهذا الحادث الثالث خلال رحلة موسى عليه السلام والخضر.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: " ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ أي فانطلق الخضر وموسى عليهما السلام يمشيان بعد المرتين الأوليين، حتى إذا وصلا إلى قرية، طلبا من أهلها إطعامهما وسد جوعتهما، فرفضوا ذلك وأبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من الضيافة. وهذا إخلال بالمروءة، واتصاف بالبخل والشح، وتلك القرية هي أنطاكية.

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ ﴾ أي وجد الخضر وموسى عليهما السلام في تلك القرية حائطاً آيلاً إلى السقوط، فردَّه الخضر كما كان.

وعند ذلك قال موسى عليه السلام للخضر:

﴿ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ أي قال موسى عليه السلام للخضر: ليتك تطلب أجرة على إقامة الجدار وإصلاحه، فإنه نظراً لأنهم لم يضيفونا، كان ينبغي ألا تعمل لهم مجاناً"[1]

[1] التفسير المنير (16/ 9).

يقول المنصوري: "﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ﴾ هي أنطاكية، وقيل هي بلدة في الأندلس ﴿ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ روي أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما، واستضافاهم فأبوا أن يضيفوهما، ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ أي يقارب ويداني أن يسقط، فاستعيرت الإرادة المشارفة للدلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاض: الإسراع في السقوط، ومنه انقضاض الطير والكوكب ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ مسحه بيده فقام، وقيل: نقضه وبناه، فقال الخضر بيده هكذا فأقامه ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ تحريضاً على أخذ الأجرة، أو تعريضاً بأنه فضول، كأنه لما رأى الحرمان، ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه؛ لم يتمالك الصبر"[1]

يقول الألوسي: "قال موسى عليه السلام ﴿ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ تحريضاً للخضر، وحثاً على أخذ الجعل والأجرة على فعله ليحصل لهما بذلك الانتعاش والتقوى بالمعاش فهو سؤال له لِمَ لم يأخذ الأجرة، واعتراض على ترك الأخذ، فالمراد لازم فائدة الخبر إذ لا فائدة في الإخبار بفعله"[2]

---

[1] المقتطف (274/3)

[2] روح المعاني تفسير الألوسي (8/ 330).

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: "من سعادة المرء أن يكون خصمه فهماً، وخصمي لا فهم له. قيل له: من خصمك؟ قال: خصمي نفسي لا فهم لها تبيع الجنة بما فيها من النعيم المقيم والخلود فيها بشهوة ساعة في دار الدنيا"[1]

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (10/ 59).

الآية الثامنة والسبعون: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ الكهف: ٧٨

"أي قال الخضر لموسى عليه السلام: هذا الإنكار أو الاعتراض المتكرر سبب الفراق بيننا أو المفرّق بيننا، بحسب الشرط الذي قبلته على نفسك، فقد قلت بعد قتل الغلام: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ وسأخبرك بتفسير وبيان وجه الأفعال التي أنكرتها، ولم تطق صبراً عليها، وهي خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار. وهذا عتاب ولوم على عدم الصبر"[1]

لا تفارق صاحبك حتى تبين له الأسباب التي حملتك على ذلك، فقد قال العبد الصالح لموسى عليه السلام: قبل مفارقتي سأخبرك عن السبب.

قال ابن القيم رحمه الله: " من عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده فصيرته من خدمها وعبيدها وأذلته، ومن أعرض عنها نظرت إلى كِبر قدره فخدمته وذلت له"[2]

---

[1] التفسير المنير (16/ 9- 10).

[2] الفوائد لابن القيم (1/ 99).

الآية التاسعة والسبعون: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾

الكهف: ٧٩

"أي إن السفينة التي خرقتها لأعيبها، فكانت مملوكة لضعفاء أيتام ليس لهم شيء ينتفعون به غيرها، ولا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم، وكانوا يُكْرون تلك السفينة لركاب البحر، ويأخذون الأجرة، فأردت بخرقها ونزع لوح منها أن أعيبها؛ لأنه كان أمامهم ملك جبار ظالم يستولي على كل سفينة صالحة غير معيبة، ويغتصبها ظلماً وعدواناً دون وجه حق، فكان عملي حماية لهذه السفينة لأصحابها الضعفاء، فأنا لم أعمل سوءاً، وإنما ارتكبت أخف الضررين لدفع أعظمهما"[1]

قال علي بن ابي طالب ﷺ: "يا بن آدم لا تحمل هم يومك الذي لم يأتِ على يومك الذي أنت فيه، فإن يكن من أجلك يأت فيه رزقك، واعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك"[2]

[1] التفسير المنير (16/ 10).
[2] عيون الأخبار (2/ 400).

الآية الثمانون: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ الكهف: ٨٠

"أي وأما الولد الغلام الذي قتلته، وكان اسمه شمعون أو حيشور أو حيسون، فإنه كان كافراً، وقد أطلعني الله ﷻ على مستقبله، وكان أبواه مؤمنين، فخشينا إذا صار كبيراً أن يحملهما حبه على متابعته في الكفر والوقوع في الظلم والعصيان والمنكرات؛ لأن حب الولد غريزة. وهذا قبيل سد الذرائع وفتحها، فإن كل ما كان وسيلة إلى المصلحة فهو مصلحة"[1]

قال قتادة: "قد فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله ﷻ، فإن قضاء الله ﷻ للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث: "لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له"[2]، وقال ﷻ: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿٢١٦﴾ ﴾ البقرة: ٢١٦"[3]

قال أبو ذر ﷺ: "الصاحب الخير خير من الوحدة، والوحدة خير من جليس السوء، وحامل الخير خير من الساكت، والساكت خير من حامل الشر، والأمانة خير من الخاتمة، والخاتمة خير من الدنيا"[4]

---

[1] التفسير المنير (16/ 10).
[2] صحيح مسلم (8/ 227).
[3] تفسير ابن كثير (5/ 185).
[4] العزلة للخطابي (1/ 49).

الآية الحادية والثمانون: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ الكهف: ٨١

بعدما تمت رحلة الخضر مع موسى عليه السلام ورأى فيها موسى عليه السلام أموراً عجيبة من فعل الخضر لم يصبر عليها، وقبل الفراق بينهما نبأ الخضر موسى عليه السلام عن حكمة تلك الأمور العجيبة التي أنكرها عليه حسب وعده له بذلك. فأخبره عن تأويل الفعلة الأولى وهي خرق السفينة، وعن تأويل الفعلة الثانية وهي قتل الغلام؛ فبين له الحكمة من قتله وهي: أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يحفظ على والديه إيمانهما ويرزقهما أطهر نفساً منه، وأكثر براً بهما منه لأن ذلك الغلام كان فاسداً مفسداً في باطنه، وهذا من العلم الذي أعلمه الله سبحانه وتعالى للخضر. فهو تنفيذ لأمر الله عز وجل رحمة بالعباد.

يقول الألوسي: "﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ ﴾ بأن يرزقهما بدله ولداً خيراً منه طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة. وفي التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما، ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ والمراد أقرب رحمة عليهما وبراً بهما"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي قال الخضر العالم: فأردنا أن يرزقهما الله سبحانه وتعالى بدل هذا الولد ولداً خيراً منه ديناً وصلاحاً وطهارة من الذنوب، وأقرب رحمة لوالديه، وعطفاً عليهما، وبراً بهما وشفقة عليهما. ويلاحظ أن الغلام يشمل

[1] روح المعاني تفسير الألوسي (8/ 334).

البالغ والصغير، ويرى الجمهور أن هذا الغلام لم يكن بالغاً، لذا قال موسى عليه السلام: نفساً زكية أي لم تذنب"[1]

قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه: "من أصلح بينه وبين الله عز وجل أصلح الله عز وجل ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته، أصلح الله عز وجل أمر دنياه، ومن كان من نفسه واعظ، كان عليه من الله عز وجل حافظ"[2]

[1] التفسير المنير (16/ 11).
[2] موارد الظمآن لدروس الزمان (4/ 43).

الآية الثانية والثمانون: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ الكهف: ٨٢

"وهذا تفسير الأمر الأخير والذي كان سبباً في فراق موسى عليه السلام والخضر.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي وأما الحائط الذي أصلحته، فكان لولدين صغيرين يتمين في قرية وهي أنطاكية، وكان تحته كنز، أي مال جسيم مدفون، وكان أبوهما وهو الأب السابع رجلاً صالحاً، فأراد الله عز وجل إبقاء ذلك الكنز وكان ملاً مدفوناً حفظاً لمالهما، ولصلاح أبيهما، فأمرني ربي بإصلاح ذلك الحائط، إذ لو سقط لاكتشف وأخذ، وأراد الله عز وجل أن يبلغ الغلامان كمالهما وتمام نموهما، ويستخرجا الكنز من ذلك الموضع الذي عليه الجدار، رحمة لهما، بصلاح أبيهما. والمراد بالمدينة هي القرية المذكورة سابقاً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وهو دليل على إطلاق القرية على المدينة، والظاهر أن الغلامين كانا صغيرين بقرينة وصفهما باليتم.

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي إن ما فعلته من الأمور الثلاثة لم يكن باجتهادي ورأيي، ولكنه بأمر الله ﷻ وإلهامه ووحيه، فالإقدام على ذلك كله من الاعتداء على المال والنفس وإصلاح الجدار، وهو لا يكون إلا بالوحي والنص القاطع.

وذلك المذكور هو تفسير ما ضاق صبرك عنه، ولم تطق السكوت عنه، ولم تصبر حتى أبيّن لك السبب والحكمة فيه"[1]

ويلاحظ في الآيات أن الخضر نسب الفعل الأول لنفسه حين قال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ لأن هذا الفعل ظاهره شر واضح فنسبه لنفسه، ولم ينسبه إلى الله ﷻ، ونسب قتل الغلام لنفسه أيضاً بقوله: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا ﴾ لأنه عمل ظاهره الفساد، لا يليق نسبته إلى الله ﷻ، مع أن كل ما فعله الخضر كان بأمر الله ﷻ، وأسند الفعل الأخير إلى الله ﷻ، وهو ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ لأنه إنعام محض، وهذا هو اللائق بالمسلم، أن لا ينسب الفعل الذي لا يليق بالله ﷻ إليه، وإن كان ﷻ خالق كل شيء أدباً معه ﷻ

"إن الخضر لما ذهب يفارق موسى عليه السلام قال له موسى عليه السلام: أوصني، قال: كن بسَّاماً ولا تكن ضحَّاكاً، ودع اللجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تَعِب على الخطَّائين خطاياهم، وابكِ على خطيئتك يا بن عمران"[2]

---

[1] التفسير المنير (16/ 11- 12).

[2] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (6/ 77).

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: "حفت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء، إن صبر نفسه على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافية، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علة الضنا"[1]

[1] صفة الصفوة (2/ 294).

الفقرة السابعة

قصة ذي القرنين

فتنة السلطة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ
ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾
فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ
حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا
نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ
أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا
تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا
لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن
دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ
وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ

إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن
يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ
رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى
بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ الكهف: ٨٣ - ٩٩

الآية الثالثة والثمانون: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ الكهف: ٨٣

هذه القصة الرابعة التي ذكرت في هذه السورة وهي قصة ذي القرنين.

"ويسألونك اليهود وقريش يا محمد عن خبر ذي القرنين، سؤال اختبار وتعنت، فقل لهم: سأخبركم عنه خبراً مذكوراً في القرآن بطريق الوحي المتلو المنزَّل علي من ربي.

وذو القرنين: قيل: هو إسكندر بن فيلبس المقدوني اليوناني الذي ملك الدنيا بأسرها قبل الميلاد بنحو 320 سنة باني الإسكندرية، وتلميذ أرسطو الفيلسوف المعلم الأول، حارب الفرس، واستولى على ملك دارا وتزوج ابنته، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك، ثم حكم مصر، وإنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها، فغلب على أكثر البلاد شرقاً وغرباً، **قال الشوكاني**: "وهذا مشكل، لأنه كان كافراً وتلميذ أرسطو" والظاهر أنه عبد صالح أعطاه الله ﷻ ملكاً واسعاً"[1]

قال يحيي بن معاذ رحمه الله: **"اللهم إن كان ذنبي قد أخافني، فإن حسن ظني قد أجارني، اللهم سترت عليّ في الدنيا ذنوباً أنا إلى سترها في القيامة أحوج، وقد أحسنت بي إذ لم تظهرها لعصابة من المسلمين، فلا تفضحني في ذلك اليوم على رؤوس العالمين، يا أرحم الراحمين"**[2]

---

[1] التفسير المنير (16/ 23).

[2] وفيات الأعيان (6/ 166).

الآية الرابعة والثمانون: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ الكهف: ٨٤

يخبر الله ﷻ أنه يسَّر لذي القرنين أسباب الملك والسلطان والفتح والنصر، وأمده بما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب كالعلم والقدرة وحسن التدبير والحكمة، وتدريب القادة وحشد الجنود.

أي إنا أعطيناه ملكاً عظيماً، ومكَّناه فيه من جميع ما يؤتي الملوك من السلطة المطلقة المدعمة بالجنود وآلات الحرب والعلم، وأقدرناه على التصرف بحيث يصل إلى جميع أنحاء المملكة، ومهَّدنا له من الأسباب والوسائل التي تمكّنه من السيطرة وبسط النفوذ أين شاء وكيف شاء، فملك مشارق الأرض ومغاربها، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العرب والعجم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أعطيناه من كل ما يتعلق بمطلوبه طريقاً يتوصل بها إلى ما يريده"[1]

التمكين منحة إلهية وعطية ربانية، وقد مكَّن الله ﷻ لذي القرنين كما مكَّن لبعض أنبيائه ورسله، مثل سليمان وداوود عليهما السلام، ولم يمكّن لبعض رسله كعيسى ويحيي وزكريا عليهم السلام، وذلك لحكمة بالغة؛ أن الأمر كله بيد الله ﷻ لا بيد أحد من الخلق.

بعض صور التمكين لذي القرنين:

* مكَّن له في العلوم والمعرفة بسنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً.

[1] التفسير المنير (16/ 23- 24).

* مكَّن له في سياسة الناس أفراداً وجماعات إدارة وتربية وانتظاماً.

* مكَّن له في أسباب القوة المادية من الأسلحة والجيوش.

* مكَّن له في أسباب العمران وتخطيط المدن وزراعة الأرض.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: "أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: طول الأمل واتباع الهوى، فطول الأمل ينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق"[1]

[1] البداية والنهاية (10/ 642).

الآيتان الخامسة والثمانون والسادسة والثمانون: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ الكهف: ٨٥ - ٨٦

تتحدث الآية عن بداية رحلة ذي القرنين؛ فبدأت رحلته باتجاه أقصى الغرب، فوصل إلى عين ماء قد اختلط طينها الأسود بمائها الحار، ووجد في ذلك المكان قوماً خيّره الله ﷻ في أمرهم.

يقول المنصوري: "حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة الغرب، بحيث لا يتمكن أحد عن مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي يقال له أوقيانوس، وجد الشمس تغرب في عين ذات حمأة، وهي الطين الأسود، ولعله بلغ ساحل المحيط، فرآها كذلك، إذ لم يكن في مطمع بصره غير الماء، ولذلك قال ﷻ:

﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ ﴾ ولم يقل: كانت تغرب، كما أن راكب البحر يرى الشمس تغيب في البحر"[1]

ويقول الشنقيطي: "المراد بالعين في الآية البحر المحيط، وهو ذو طين أسود، والعين تطلق في اللغة على ينبوع الماء. والينبوع: الماء الكثير، فاسم العين يصدق على البحر لغة. وكون من على شاطئ المحيط الغربي يرى الشمس في نظر عينه تسقط في البحر أمر معروف"[2]

---

[1] المقتطف (3/ 278)

[2] أضواء البيان (3/ 341)

يقول البيضاوي: "ووجد عند تلك العين قوماً، قيل كان لباسهم جلود الوحش، وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً، فخيَّره الله ﷻ بين أن يعذبهم بالقتل، أو يدعوهم إلى الإيمان بالإرشاد وتعليم الشرائع. وقيل: خيّره بين القتل والأسر وسماه إحساناً في مقابلة القتل"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي فاتَّبع طريقاً من الطرق التي تؤديه إلى مراده، حتى إذا وصل نهاية الأرض من جهة المغرب التي ليس بعدها إلا البحر المحيط، وهو بحر الظلمات أو المحيط الأطلسي، سائراً في بلاد المغرب: تونس والجزائر ومراكش، فوجد الشمس تغرب في عين كثيرة الحمأة، أي الطين الأسود، وهذا ما يلاحظ من غياب قرص الشمس على ساحل المحيط المختلط بالرمال والطينة السوداء"[2]

قال الرازي: "إنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة، وأن السماء محيطة بها، ولا شك أن الشمس في الفلك، وأيضاً قال ﷻ: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود، وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة، فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض؟ إذا ثبت هذا، فنقول: تأويل قوله ﷻ: ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب، ولم يبقَ بعده شيء من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب في عين وَهْدَة مظلمة، وإن لم تكن

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل تفسير البيضاوي (3/ 291- 292).
[2] التفسير المنير (16/ 24).

كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر، إذا لم يرَ الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر."[1]

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ أي وجد في أقصى المغرب عند تلك العين الحمئة قوماً كفاراً وأمة عظيمة من بني آدم، فقلنا له بالإلهام: أنت مخير فيهم بين أمرين: إما أن تعذبهم بالقتل إن أصروا على الكفر، وإما تحسن إليهم وتصبر عليهم، بدعوتهم إلى الحق والهدى والرشاد، وتعليمهم الشرائع والأحكام"[2]

[1] التفسير الكبير للرازي (21/ 496).
[2] التفسير المنير (16/ 25).

قال ابن القيم رحمه الله: "هلم الدخول على الله ﷻ ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء, بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرك وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسه بما هو أولى وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك ﷻ بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب انقضت عنك بسرعة وأعقبتك الألم العظيم الدائم، الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله ﷻ والصبر على طاعته ومخالفته الهوى لأجله"[1]

[1] الفوائد لابن القيم (1/ 116- 117).

الآية السابعة والثمانون: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ الكهف: ٨٧

"قال ذو القرنين لبعض حاشيته: أما من ظلم نفسه بالإصرار على الشرك، ولم يقبل دعوتي، فسنعذبه بالقتل في الدنيا، ثم يرجع إلى ربه ﷻ في الآخرة، فيعذبه عذاباً منكراً شنيعاً في نار جهنم"[1]

قال أبو الدرداء ﷺ: "لو تعلمون ما أنتم راءون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ولا شربتم شراباً على شهوة ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددت أنكم شجرة تعضد ثم تؤكل"[2]

[1] التفسير المنير (16/ 25).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 216).

الآية الثامنة والثمانون: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الكهف: ٨٨

حينما خيَّر الله ﷻ ذا القرنين في أهل أقصى المغرب بين تعذيبهم ودعائهم إلى الإسلام؛ اختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم، فبيّنت الآية السابقة شأن من دعاه ذو القرنين إلى الإيمان فأبى، وهذه الآية تبيّن شأن وجزاء من دعاه فآمن، وعمل بمقتضى الإيمان.

قال أبو حيان: "ولما ذكر ما يستحقه من آمن وعمل صالحاً؛ ذكر جزاء الله ﷻ له في الاخرة وهو الحسنى، أي الجنة لأن طمع المؤمن في الآخرة ورجاءه هو الذي حمله على أن آمن لأجل جزائه في الآخرة، وهو عظيم بالنسبة للإحسان في الدنيا، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاق عليه، أي قولاً ذا يسر وسهولة، كما قال ﴿ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الإسراء: ٢٨، ولما ذكر ما أعد الله ﷻ له من الحسنى جزاء لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل، بل اقتصر على القول أدباً مع الله ﷻ، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلاً وقولاً"[1]

يقول الطبري: "وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاؤها، يعني جزاء هذه الفعال الحسنة والوجه الثاني: أن يكون معنياً بالحسنى: الجنة، وأضيف الجزاء إليها، كما قيل ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ النحل: ٣٠، والدار: هي الاخرة، وكما قال:

[1] البحر المحيط (7/ 222).

﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ البينة: ٥، والدين: هو القيم، أي لهم الجنة جزاء، فيكون الجزاء نصباً على التفسير"[1]

يقول وهبة الزحيلي: "أي وأما من آمن بالله ﷻ ووحدانيته وصدَّق دعوتي، وعمل عملاً صالحاً مما يقتضيه الإيمان، فجزاؤه الجنة، وسنطلب منه أمراً ذا يسر غير صعب ولا شاقّ؛ ليرغب في دين الله ﷻ، ويحب فعل أوامر الله ﷻ من صلاة وصيام وزكاة وخراج ونحوها، فلا نأمر بالصعب الشاق، ولكن بالسهل الميسر"[2]

يقول صاحب الظلال: "هذا هو دستور الحاكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم، والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء"[3]

قال ابن القيم رحمه الله: "أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة، فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة، فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة"[4]

---

[1] تفسير الطبري (15/ 380).
[2] التفسير المنير (16/ 25).
[3] في ظلال القرآن (4/ 2291).
[4] الفوائد لابن القيم (1/ 157).

الآيتان التاسعة والثمانون والتسعون: ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرًا ﴿٩٠﴾

﴿ الكهف: ٨٩ - ٩٠

"أي ثم سلك طريقاً آخر متجهاً من مغرب الشمس إلى مشرقها، حتى إذا وصل الموضع التي تطلع عليه الشمس أولاً من معمور الأرض، وجدها تطلع على قوم حفاة عراة، لا شيء يسترهم من حر الشمس، لا من اللباس، ولا من البيوت والمباني والأشجار، وإنما يعيشون في مفازة لا مأوى فيها، ولا شجر، وأكثر معيشتهم من السمك"[1]

قال الحسن البصري ﷺ: "إنما الدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط بينهما، ونحن أضغاث أحلام من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فامسك، واعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه"[2]

[1] التفسير المنير (16/ 25).
[2] العقد الفريد (3/ 96).

الآية الحادية والتسعون: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

الكهف: ٩١

"أي إن أمر ذي القرنين كما وصفنا من قبل من اتباع الأسباب، حتى بلغ المشرق والمغرب، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به، ونحن مطلعون على جميع أحواله، لا يخفى علينا منها شيء، كما في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ آل عمران: ٥، أي فهو كما وصف، مما لا يعلمه إلا عالم الغيب والشهادة"[1]

قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: "أيها الناس ما الجزع مما لابد منه، وما الطمع فيما لا يرجى فيه، وما الحيلة فيما لا يزول، وإنما الشيء من أصله، وقد مضت من قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد الأصل، فكل ما هو آت قريب، أيها الناس إنما أنتم في الدنيا أغراض، تنتصل فيكم المنايا، ونهب للمصائب، ومعدن للنوائب، مع كل آكلة غصص، ومع كل شربة شرق، ألا تنالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر فيكم معمر لا يهدم آخر من أجله، وأنتم على الحتوف على أنفسكم، فأين المهرب مما هو كائن، فالله الله يا إخواني لا تركنوا إلى طول الأمل، ولا تنسوا اقتراب الأجل، فالموت لابد منه"[2]

[1] التفسير المنير (16/ 25- 26).
[2] بستان الواعظين ورياض السامعين (1/ 159- 160).

الآيتان الثانية والتسعون والثالثة والتسعون: ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمًا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ الكهف: ٩٢ - ٩٣

تتحدث الآية عن الطريق الثالث الذي سلكه ذو القرنين وهو طريق معترض بين المشرق والمغرب، حيث وجد بالقرب من جبلين عظيمين قوماً لا يفهمون لسان غيرهم ولا يُفْهِمُون غيرهم.

يقول ابن عاشور: "ويظهر أن هذا السبب اتجه به إلى جهة غير جهتي المغرب والمشرق، فيحتمل أنها الشمال أو الجنوب، وعيَّنه المفسرون أنه للشمال، وبنوا على أن ذا القرنين هو إسكندر المقدوني، فقالوا: إن جهة السدين بين أرمينيا وأذربيجان. ونحن نبني على ما عيناه في الملقب بذي القرنين، فنقول: إن موضع السدين هو الشمال الغربي لصحراء قوبي الفاصلة بين الصين وبلاد المغول شمال الصين وجنوب منغوليا. وقد وجد السد هنالك، ولم تزل آثاره إلى اليوم شاهدها الجغرافيون والسائحون، وصورت صوراً شمسية في كتب الجغرافيا وكتب التاريخ العصرية. ومعنى ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا ﴾ أنهم لا يعرفون شيئاً من قول غيرهم فلغتهم مخالفة للغات الأمم المعروفة بحيث لا يعرفها تراجمة ذي القرنين؛ لأن شأن الملوك أن يتخذوا تراجمة ليترجموا لغات الأمم الذين يحتاجون إلى مخاطبتهم، فهؤلاء القوم كانوا يتكلمون بلغة غريبة لانقطاع أصقاعهم عن الأصقاع المعروفة، فلا يوجد من

يستطيع إفهامهم مراد الملك، ولا هم يستطيعون الإفهام. ويجوز أن يكون المعنى أنهم قوم متوغلون في البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم"[1]

يقول البقاعي: "أي لا يقربون من أن يفهموه ممن مع ذي القرنين فهماً جيداً كما يفهم غيرهم، ودل وصفهم بما يأتي على أنهم يفهمون فهماً ما بَعدَ بُعدِ ومحاولة طويلة، لعدم ماهر بلسانهم ممن مع ذي القرنين، وعدم ماهر منهم بلسان أحد ممن معه، وهذا يدل على أن بينهم وبين بقية سكان الأرض غير يأجوج ومأجوج براري شاسعة، وفيافي واسعة، منعت من اختلاطهم بهم، وأن تطيعهم بلسان غيرهم بعيد جداً لقلة حفظهم لخروج بلادهم عن حد الاعتدال، أو لغير ذلك"[2]

ويقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي ثم سلك طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب متجهاً من الشرق إلى الشمال، حتى إذا وصل بين الجبلين بين أرمينية وأذربيجان، وجد من ورائهما قوماً من الناس لا يكادون يفهمون كلام غيرهم، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ونباهتهم.

هؤلاء القوم من الصقالبة (السلاف) الذين يسكنون شرقي البحر الأسود، في سد منيع بين جبلين قرب مدينة باب الأبواب أو دربت بجبل قوقاف، اكتشفه السياح في القرن الحاضر"[3]

---

[1] التحرير والتنوير (31/16)

[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (12/ 134).

[3] التفسير المنير (16/ 26).

قال سلمان الفارسي ﷺ: "ما من يوم إلا وملك الموت ينادي يا أهل الدنيا عجلوا لأن أهل القبور محبوسون من أجلكم، اتركوا ما جمعتم، وخربوا ما بنيتم، الويل لكم إن أدرككم الموت على هذه الحالة، زينتم الدور ونسيتم القبور، اذكروا القبر ووحشته، والموت وسكرته، والصراط ودقته، الموت سكرة في سكرة، وحيرة في حيرة، وجذبة يا لها من جذبة، فالمسكين يكابد غصص[1] المنون، داهش العقل كالمحزون. فالله الله عباد الله أفيقوا من سكراتكم. وانتبهوا من نوماتكم، واستيقظوا من غفلاتكم، قبل نزول المنية، وحلول الرزية، ووقوع البلية، حيث لا مال نافع، ولا حميم شافع، ولا فرح واقع، ولا رجاء طامع، ولا حسنة تزاد، ولا حياة تعاد، ويزودك أحبابك بالصراخ، ويكثرون عليك البكاء والنواح، فلا عثرة تقال، ولا رجعة تنال"[2]

[1] غصص: وهو ما يقف في الحلق من طعام أو شراب

[2] بستان الواعظين ورياض السامعين (1/ 172- 173).

الآية الرابعة والتسعون: ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ ﴾ الكهف: ٩٤

تتحدث الآية عن شكاية ساكني البلاد التي وصل إليها ذو القنين مما يلي السدين مما يلقون من يأجوج ومأجوج، ورجاؤهم عنده ما ينفعهم من منع إفساد تينك القبيلتين، وما عرضوه عليه مقابل ذلك.

يقول البقاعي: "﴿ قَالُواْ ﴾ أي مترجموهم أو جيرانهم الذين من دونهم ممن يعرف بعض كلامهم، أو بالإشارة كما يخاطب إليكم: ﴿ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ ﴾ مسنا الضر ﴿ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ ﴾ وهما قبيلتان من الناس من أولاد يافث، لا يطاق أمرهم، ولا يطفأ جمرهم، ﴿ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ بأنواع الفساد ﴿ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا ﴾ نخرجه لك من أموالنا على أن تجعل في جميع ما بيننا وبينهم من الأرض التي يمكن توصلهم إلينا منها بما آتاك الله ﷻ من المكنة سداً بين هذين الجبلين"[1]

يقول ابن عاشور: "وافتتاحهم الكلام بالنداء أنهم نادوه نداء المستغيثين المضطرين، ونداؤهم إياه بلقب ذي القرنين يدل على أنه مشهور بمعنى ذلك اللقب بين الأمم المتاخمة لبلاده"[2]

يقول مكي بن أبي طالب: "كأنهم قالوا له: نجعل لك جُعلاً ندفعه إليك الساعة من أموالنا مرة واحدة، على أن تبني بيننا وبينهم سداً، أي فهل نجعل لك أجرة

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (12/ 134- 135).
[2] التحرير والتنوير (16/ 32)

نؤديها إليك في كل وقت نتفق عليه كالجزية على أن تبني بيننا وبينهم سداً أي حاجزاً. فالخراج ما يؤدى في كل شهر أو في كل سنة"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي قال سكان السد بين الجبلين، وقد فهم كلامهم ذو القرنين بتيسير الله ﷻ الأسباب التي أعطاها له: أو بواسطة الترجمان: إن يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان من الناس يفسدون في أرضنا بالقتل والتخريب والظلم والغشم وسائر وجوه الإفساد.

﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أي فهل توافق على أن نعطيك جُعْلاً أو ضريبة من أموالنا، على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزاً منيعاً يمنعهم من الوصول إلينا"[2]

على الحاكم المسلم أن يتواصل مع رعيته، ولا يقيم بينه وبينهم حواجز وسدوداً، فإن فعل أحبوه وساندوه في تحقيق مهامه.

قال ابن القيم رحمه الله: "بين العبد وبين الله ﷻ والجنة قنطرة تقطع بخطوتين: خطوة عن نفسه وخطوة عن الخلق، فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس، ويسقط الناس

[1] الكشف (2/ 78)
[2] التفسير المنير (16/ 26).

ويلغيهم فيما بينه وبين الله ﷻ، فلا يلتفت إلا إلى من دله على الله ﷻ وعلى الطريق الموصلة إليه"[1]

[1] الفوائد لابن القيم (1/ 55).

الآية الخامسة والتسعون: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ الكهف: ٩٥

الآية استكمال لقصة ذي القرنين مع المستغيثين من يأجوج ومأجوج. فحينما عرضوا عليه جعلاً أو فريضة من أموالهم لقاء بناء سد لهم يقيهم من بأس يأجوج ومأجوج؛ أجابهم بلسان الشاكر لأنعم الله ﷻ، المستغني عن أموال العباد لقاء مرضاة الله ﷻ. وطلب الاستعانة بهم في بناء ردم أكبر وأحصن من السد الذي يرجونه.

يقول ابن عطية: "قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله ﷻ لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، وبعمل منكم بالأيدي ...، وهذا من تأييد الله ﷻ لذي القرنين، فإنه تَهَدَّى في هذه المحاورة إلى الأنفع الأنزه، فإن القوم لو جمعوا له خرجاً لم يعنه منهم أحد، ولوكلوه إلى البنيان، ومعونتهم بالقوة أجمل به، وأمر يطاول مدة العمل، وربما أربى على المخرَج، والردم أبلغ من السد، إذ السد كل ما سد به، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "قال ذو القرنين: ما مكنني فيه ربي، وآتاني من سعة الملك والقدرة ووفرة المال، خير من خرجكم ومما تجمعون، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴿٣٦﴾ ﴾ النمل:

[1] المحرر الوجيز (542/3)

٣٦، ولكن ساعدوني بقوة، أي بعمل الرجال وآلات البناء، أجعل بينكم وبينهم سداً منيعاً وحاجزاً حصيناً"[1]

أن الله ﷻ قد مكّن لذي القرنين تمكينين استطاع من خلالهما أن يملك مشارق الأرض ومغاربها.

الأول: تمكين بالملك والسلطان.

الثاني: تمكين بالعلم والإيمان والهداية.

يقول البقاعي: "ولما كانت لمكنته حالتان: إحداهما ظاهرة، وهي ما شوهد من فعله بعد وقوعه، وباطنة ولا يقع أحد عليها بحدس ولا توهم، لأنها مما لم يؤلف مثله، فلا يقع المتوسم عليه"[2]

قال يحيى بن معاذ ﷺ: "يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أصفيها وأحرزها وأنا بالآفات معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف"[3]

---

[1] التفسير المنير (16/ 27- 28).

[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (12/ 135).

[3] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (3/ 49)، الرسالة القشيرية (1/ 261)، الكشكول (2/ 45).

الآية السادسة والتسعون: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

﴿ الكهف: ٩٦

بعدما رفض ذو القرنين أن يأخذ أجراً على بناء السد، طلب الاستعانة بهم في بناء ردم أكبر وأحصن من السد الذي يرجونه، وذلك بأن يمدوه بالعمال والآلات التي تساعد في إنجاز العمل، ثم شرع في بنائه بمساعدتهم.

قال البغوي: "قال لهم ذو القرنين ما قواني عليه ربي خير من جُعلكم، فإني لا أريد المال، بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم أجعل بينكم وبينهم ردماً أي سداً، قالوا وما تلك القوة؟ قال فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل والآلة قالوا وما تلك الآلة؟ قال جيئوني بقطع الحديد فأتوه بها وبالحطب، وجعل بعضها على بعض، فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد حتى إذا سوى بين طرفي الجبلين قال انفخوا، وفي القصة أنه جعل الفحم والحطب في خلال زبر الحديد ثم قال انفخوا يعني في النار، حتى إذا صار الحديد ناراً قال آتوني قطراً أفرغ عليه، والإفراغ الصب، والقطر هو النحاس المذاب، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس، وفي القصة أن عرضه كان خمسين ذراعاً وارتفاعه مائتي ذراع وطوله فرسخ"[1]

[1] تفسير البغوي (3/ 217).

يقول القرطبي: "أي أعطوني زبر الحديد وناولونيها، أمرهم بنقل الآلة، وهذا كله إنما استدعاء العطية التي بغير معنى الهبة، وإنما هو استدعاء للمناولة؛ لأنه قد ارتبط من قوله: إنه لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبقَ إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان"[1]

يقول وهبة الزحيلي: "أي قدّموا لي قِطَع الحديد، فلما جاؤوا بها، أخذ يبني بها بين الجبلين، فيضع بعضها على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى بالبنيان رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً، قال للعمال المساعدين: انفخوا على هذه الزُّبَر (القطع) بالكيران، حتى صار كله ناراً مشتعلة متوهجة، ثم صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمّى، فصار كله كتلة متلاصقة وجبلاً صلداً، وانسد فجوات الحديد"[2]

قال الفضيل بن عياض ﷺ: "ما من ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل ﷻ: من أعظم مني جوداً، والخلائق عاصون، وأنا لهم مراقب أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء من ذا الذي دعاني فلم أسمع إليه أو من ذا الذي سألني فلم أعطه، أما من ذا الذي أناخ ببابي ونحيته، أنا الفضل ومني الفضل، أنا الجواد ومني الجود، أنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصي، وأين عن بابي يتنحى العاصون"[3]

---

[1] تفسير القرطبي (11/ 60- 61).
[2] التفسير المنير (16/ 28).
[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 92).

الآية السابعة والتسعون: ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ ﴾ الكهف: ٩٧

تتحدث الآية عن متانة الردم الذي بناه ذو القرنين بحيث لم يستطع قوما يأجوج ومأجوج أن يعلوه لارتفاعه وملاسته ولا أن يثقبوه لمتانته.

يقول المنصوري: "فعلوا ما أُمروا به فصار جبلاً صلداً، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فلم يستطيعوا ولم يقدروا أن يعلوه لارتفاعه وملاسته، ولم يستطيعوا أن ينقبوه لثخنه وصلابته، وهذه خارقة عظيمة، لأن تلك الزبر الكثير بالنفخ فيها تكون كالنار، وإفراغ القطر عليها أي النحاس المذاب شبه مستحيل، فكان ما كان، والله ﷻ على كل شيء قدير. وقيل: بناه من الصخور مرتباً بعضها ببعض بكلابيب من حديد ونحاس مذاب"[1]

قال القرطبي: "ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه؛ لأنه أملس مستوٍ مع الجبل، والجبل عال لا يرام، وارتفاع السد مائتا ذراع وخمسون ذراعاً، وروي في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ، وفي عرضه خمسون فرسخ؛ **قال وهب بن منبه** رضي الله عنه: قوله ﷻ: ﴿ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴾ لبعد عرضه وقوته، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه"[2]، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها"[3]

---

[1] المقتطف (3/ 282)

[2] صحيح البخاري (4/ 138)، صحيح مسلم (4/ 2208).

[3] تفسير القرطبي (11/ 62).

قال وهبة الزحيلي: "أي ما قدر يأجوج ومأجوج أن يصعدوا فوق السد، لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا نقبه من أسفله وشدته، لصلابته وشدته، وأراح الله ﷻ الشعوب المجاورة لفسادهم وسوئهم"[1]

قال ابن القيم ﷺ: "القلوب في الولادة ثلاثة: قلب لم يولد، ولم يأن له بل هو جنين في بطن الشهوات والغي والجهل والضلال، وقلب قد ولد وخرج إلى فضاء التوحيد والمعرفة وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى فقرت عينه بالله ﷻ، وقرت عيون به قلوب، وأنست بقربه الأرواح، وقلب ثالث في البرزخ ينتظر الولادة صباحاً مساءً قد أصبح على فضاء التجريد، وأنس من خلال الديار أشعة التوحيد، تأبى غلبات الحب والشوق إلا تقرباً إلى السعادة كلها بقربة، وتأبى غلبات الطباع إلا جذبه وإيقافه تعويقه، فهو بين الداعين تارة، وتارة قد قطع عقبات وآفات وبقي عليه مفاوز وفلوات"[2]

---

[1] التفسير المنير (16/ 28).

[2] طريق الهجرتين وباب السعادتين (1/ 16).

الآية الثامنة والتسعون: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ الكهف: ٩٨

حين فرغ ذو القرنين من بناء السد ورأى أن يأجوج ومأجوج لا يستطيعون أن يعلوا الردم أو أن ينقبوه، أو أن يعتدوا على من دونه قال هذا الذي بنيته وأعانني عليه الله ﷻ من فضله وآثار رحمته بهم؛ أن حجز عنهم فساد يأجوج ومأجوج، ولكن حين تحين مشيئة الله ﷻ يدكه فيجعله أرضاً مستوية ملساء كأن لم يكن من قبل.

قال وهبة الزحيلي: "أي قال ذو القرنين لأهل تلك الديار: هذا السد نعمة وأثر من آثار رحمة ربي بهؤلاء القوم أو بالناس؛ لحيلولته بين يأجوج ومأجوج وبين الفساد في الأرض، فإذا حلَّ أجل ربي بخروجهم من وراء السد، جعله ربي مدكوكاً منهدماً، مستوياً ملصقاً بالأرض، وكان وعد ربي بخرابه وخروج يأجوج ومأجوج وبكل ما وعد به حقاً ثابتاً لا يتخلف، كائناً لا محالة"[1]

إن أهل الصلاح والإخلاص يحرصون على إنجاز الأعمال ابتغاء وجه الله ﷻ، دون انتظار مقابل أو عوض دنيوي من الناس.

[1] التفسير المنير (16/ 28).

قال وهب بن منبه رضي الله عنه: "وجدت في حكمة داود ينبغي للعاقل ألا يشغل نفسه عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها هو وإخوانه، والذي ينصحون له دينه ويصدقونه عن عيوبه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمد، فإن هذه الساعة عون لهذه الساعات وفضل بلغة واستجمام القلوب"[1]

[1] عيون الأخبار (1/ 393).

الآية التاسعة والتسعون: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ الكهف: ٩٩

"أي وتركنا بعض الناس يوم خروج يأجوج ومأجوج يضطرب ويختلط مع بعض آخر، فيكثر القتل، وتفسد الزروع، وتتلف الأموال، كما أخبر ﷻ في آية أخرى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٦، وذلك كله قبل قيام القيامة وقبل النفخ في الصور بزمن غير معلوم لنا. ويرى المفسرون آخرون أن معنى الآية: أنهم يضطربون ويختلطون كموج البحر يوم القيامة، في أول أيامها. ورجح القرطبي القول بأنه تركنا يأجوج ومأجوج وقت كمال السد يموج بعضهم في بعض.

وإذا اقترب موعد القيامة نفخ في الصور، وهي النفخة الثانية، وجمعنا الناس جمعاً بأن أحييناهم بعد تلاشي أبدانهم وصيرورتها تراباً، وأحضرناهم إلى المحشر والحساب جميعاً، كما في الآيات الأخرى، منها: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ الواقعة: ٤٩ – ٥٠، ومنها: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ الكهف: ٤٧، والصور كما جاء في الحديث الثابت: قرن ينفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام"[1]

[1] التفسير المنير (16/ 29).

قال ابن القيم رحمه الله: "سبحان الله رب العالمين، لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا: إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله سبحانه وتعالى قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقرة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والحزن وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسبه، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم له، وحميتهم له إذا أوذي أو ظلم، وذبهم عن عرضه، إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله عز وجل، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن عنه، وتنافس الناس على خدمته، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه عز وجل ولقائه له ومصيره إليه، وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه عل الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجدان حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين له، ودعائهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله عز وجل له، وإقباله عليه، وفرحه بتوبته"[1]

[1] الفوائد لابن القيم (1/ 151).

الفقرة الثامنة

جزاء الكفار

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ
أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ الكهف:
١٠٠ – ١٠٦

الآية المائة: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ الكهف: ١٠٠

مناسبة الآية:

"بعد أن ذكر الله ﷻ أنه بنفخ الصور يوم القيامة، يقوم الناس من قبورهم، ثم يجمعون في صعيد واحد للحساب، ذكر أنه حينئذ يُظهر النار للكافرين، وتخصيصه بالكافرين بشارة للمؤمنين، ويظن الكافرون أن اتخاذهم معبودات من دون الله ﷻ ينجيهم من عذابه، ولكن حبطت أعمالهم وبطلت، وصارت عديمة النفع بسبب كفرهم.

والحاصل: إن الله ﷻ يخبر عما يفعله بالكفار يوم القيامة، من عرض جهنم عليهم، أي إبرازها وإظهارها لهم، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولهم، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم، ويخبر ﷻ أيضاً أنه لا يقام لهم وزن أو قدر، وأن أعمالهم قد أحبطت وضاعت بسبب كفرهم"

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي أظهرنا جهنم وأبرزناها إبرازاً واضحاً للكفار بالله ﷻ بعد النفخة الثانية في الصور، حتى يشاهدوا أهوالها، يوم جمعنا لهم"[1]

مما يردعك عن مواقعة معاصيك أن تذكر يوم العرض على النار، وأن تتصوَّرها تحت قدميك، يمر المؤمن على الصراط فيعبر، ويمر غيره عليه فيهوي في جهنم.

[1] التفسير المنير (16/ 34- 35).

الفضيل بن عياض رحمه الله: "إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار فاعلم أنك محروم، وقد كبَّلتك الخطايا والآثام"[1]

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 96).

الآية الحادية والمائة: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ الكهف: ١٠١

هذا بيان لبعض صفات الكافرين التي استحقوا بسببها العذاب، فقد كانت أعينهم في الدنيا كأنها مغطاة بغشاء ساتر محيط بها، يمنعها من رؤية آيات الله ﷻ المنبثة في الأنفس والآفاق، والمؤدية إلى توحيد الله ﷻ وتمجيده وذكره، وكانوا لا يقدرون على سمع آيات الله ﷻ الموصلة إلى الإيمان فهم كالصم الذين لا يسمعون.

وفي هذه الآية تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي إن عذاب جهنم لأولئك الذين تغافلوا وتعاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، ولم ينظروا في آيات الله ﷻ ولم يتفكروا فيها، حتى يتوصلوا إلى توحيد الله ﷻ وتمجيده، كم قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ الزخرف: ٣٦، وكانوا لا يطيقون سماع ذكر الله ﷻ الذي بيَّنه لهم في كتابه، ولا يعقلون عن الله ﷻ أمره ونهيه"[1]

الخلاصة: إنهم تعاموا عن مشاهدة آي الله ﷻ بالأبصار، وأعرضوا عن الأدلة السمعية المذكورة في كتاب الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحج: ٤٦، وقال ﷻ:

[1] التفسير المنير (16/ 35).

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ۝٥ ﴾ فصلت: ٥

قال ابن القيم رضي الله عنه: "وهذا يتضمن معنيين: أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله عز وجل، وأدلة توحيده، وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به"[1]

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: **"يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا علمته: قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدري ما الله سبحانه وتعالى صانع بك أعظم الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حرَّكت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله سبحانه وتعالى إليك أعظم من الذنب"**[2]

[1] التفسير القيم لابن القيم (1/ 368)، شفاء العليل لابن القيم (1/ 93).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 324)

الآية الثانية والمائة: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ الكهف: ١٠٢

"أي أفظن أو أعتقد الذين كفروا بي، واتخذوا أولياء أي معبودات من دوني كالملائكة والمسيح والشياطين أن ذلك ينفعهم، أو يدفع عنهم العذاب؟ كلا لا تنفعهم تلك المعبودات، وسيظهر لهم خطؤهم، كما قال ﷻ: ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ مريم: ٨٢، لذا أخبر ﷻ عن عذابهم قائلاً:

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ أي إنا أعددنا وهيأنا لهؤلاء الكافرين بالله ﷻ جهنم يوم القيامة منزلاً ينزلون به، كما يعدُّ النزل للضيف، بسبب اتخاذهم أولياء أي معبودين من دوني، وهذا تهكم بهم، وتخطئة لحساباتهم"[1]

قال ابن عباس ﷺ: "هي مثواهم. وقيل: النزل: ما يهيأ للضيف. يريد هي معدة لهم عندنا، كالنزل للضيف"[2]

يقول البقاعي: " ولما كان كل شيء دونه ﷻ، وكان لا يستغرق شيء من الأشياء جميع ما دون رتبته من المراتب، أثبت الجار فقال: من دوني أولياء أي مبتدئين اتخاذهم من دون إذني، والمفعول الثاني لـ حسب محذوف تقديره: ينصرونهم ويدفعون عنهم ويجعلون بعضهم ولداً ولا أعذبهم. ولما كانت غاية اتخاذ الولي أن يفعل ما يفعل القريب من النصر والحماية من كل مؤذ، جاز كون هذا ساداً مسد مفعولي "حسب" لأن معناه: أحسبوا اتخاذهم مانعهم مني؟ ولما كان معنى الاستفهام

[1] التفسير المنير (16/ 36).
[2] تفسير البغوي (3/ 220).

الإنكاري: ليس الأمر كذلك، بل أصلد زندهم، وخاب جدهم، وغاب سعدهم، حسن جدا قوله مؤكداً لأجل إنكارهم: إنا أعتدنا جهنم التي تقدم أنا عرضناها لهم للكافرين نزلاً نقدمها لهم أول قدومهم كما يعجل للضيف، فلا يقدر أحد على منعها عنهم، ولهم وراءها ما يحتقر بالنسبة إليه كما هو شأن ما بعد النزل بالنسبة إليه."[1]

قال أبو الدرداء ﷺ: "إن ناقذت الناس ناقذوك، وإن تركتهم لم يتركوك، وإن هربت منهم أدركوك، فالعاقل من وهب نفسه وعرضه ليوم فقره، وما تجرع مؤمن جرعة أحب إلى الله ﷻ من غيظ كظمه، فاعفوا يعزكم الله ﷻ وإياكم ودمعة اليتيم، ودعوة المظلوم، فإنها تسري بالليل والناس نيام"[2]

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (12/ 146).
[2] بحر الدموع (1/ 141).

الآيتان الثالثة والمائة والرابعة والمائة: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾

﴿ الكهف: ١٠٣ ــ ١٠٤

"أي قل لهم يا محمد: هل نخبركم أيها الناس بأشد الناس خسراناً لأعمالهم وخطأ في حسابهم؟ هم الذين ضلوا في الحياة، فعملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مرضية مقبولة، وأتعبوا أنفسهم فيما لا نفع فيه، فهلكوا وضيعوا ثمار أعمالهم، وهم قوم مخدوعون بما هم عليه، يظنون أنهم محسنون في ذلك العمل، منتفعون بآثاره، مقبولون محبوبون"[1]

والآية توبيخ شديد لهم مفادها الموجز: قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري: يخيب سعيهم وآمالهم غداً، فهم الأخسرون أعمالاً.

قال البقاعي: " ولما تبين بذلك الذي لا مرية فيه أنهم خسروا خسارة لا ربح معها، وخاب ما كانوا يؤملون، أمره أن ينبههم على ذلك فقال: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي نخبركم أنا وكل عبد لله ﷻ ليست عينه في غطاء عن الذكر، ولا في سمعه عجز عن الوعي، إخبارًا عظيمًا أيها التاركون من لا خالق ولا رازق لهم سواه، والمقبلون على من ليس بيده شيء من خلق ولا رزق ولا غيره ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ ﴾ ولما كانت أعمالهم مختلفة، فمنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد بعض الأنبياء، ومنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يكفر بغير ذلك، جمع المميز فقال:

[1] التفسير المنير (16/ 36).

﴿ أَعْمَٰلًا ﴾ ثم وصفهم بضد ما يدعونه لأنفسهم من نجاح السعي وإحسان الصنع فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ أي حاد عن القصد فبطل ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بالإعراض عمن لا ينفعهم ولا يضرهم إلا هو، والإقبال على ما لا نفع فيه ولا ضر ﴿ وَهُمْ ﴾ أي والحال أنهم مع ظهور ذلك كالشمس ﴿ يَحْسَبُونَ ﴾ لضعف عقولهم ﴿ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أي فعلًا هو في غاية الإحكام وهم في غاية الدربة به؛ وروى البخاري في التفسير عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن الأخسرين اليهود والنصارى، قال: أما اليهود فكفروا بمحمد ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شرب"[1][2]

قال القرطبي: " فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط عمله، والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد أو الرياء"[3]

قال ابن القيم ﷺ: "صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله ﷻ التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطى عبدٌ عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجلَّ منهما، بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق

[1] صحيح البخاري (6/ 93).
[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (12/ 147- 148).
[3] تفسير القرطبي (11/ 65).

الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله ﷻ أن يهدينا صراطهم في كل صلاة"[1]

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين (1/ 69).

الآية الخامسة والمائة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ الكهف: ١٠٥

وفي هذه الآية تبيين سبب خسرانهم، وخسارة أعمالهم، وهو عدم إيمانهم بآيات الله ﷻ الدالة عليه، وكفرهم بالبعث بعد الموت.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي إن أولئك الأخسرين أعمالاً هم الذين جحدوا آيات الله ﷻ في الدنيا، وبراهينه التكوينية والتنزيلية الدالة على توحيده، وكفروا وكذبوا بالبعث والحساب ولقاء الله ﷻ وما بعده من أمور الآخرة، فحبطت وبطلت أعمالهم التي عملوها مما يظنونه حسناً، كم قال ﷻ: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفرقان: ٢٣، فلا يقام وزن لأعمالهم ولا يكون لهم عندنا قدر، ولا نعبأ بهم، ولا ثواب على تلك الأعمال؛ لأنها خالية من الخير"[1]

يقول السعدي: " ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانية، الدالة على وجوب الإيمان به، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر ﴿ فَحَبِطَتۡ ﴾ بسبب ذلك ﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾ لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال ﷻ:

[1] التفسير المنير (16/ 36- 37).

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ طه:

١١٢، لكن تعد أعمالهم وتحصى، ويقررون بها، ويخزون بها على رءوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها"[1]

قال سلمة بن دينار رحمه الله: "إن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها وما خلق الله ﷻ من سيئة هي عليه أضر منها، وإن العبد ليعمل السيئة ثم تسوؤه حين يعملها وما خلق الله ﷻ من حسنة أنفع له منها، وذلك أن العبد حين يعمل الحسنة يتجبر فيها، ويرى أن له فضلاً على غيره، ولعل الله ﷻ يحبطها ويحبط معها عملاً كثيراً، وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه ولعل الله ﷻ يحدث له فيها وجلاً فيلقى الله ﷻ وإن خوفها لفي جوفه باقٍ"[2]

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 487).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 242).

الآية السادسة والمائة: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ الكهف: ١٠٦

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي إن ذلك الوعيد والجزاء على أعمالهم الباطلة في نار جهنم إنما هو بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ﷻ وسخريتهم من رسل الله ﷻ ومن معجزاتهم، فإنهم استهزؤوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب. الهزء: الاستخفاف والسخرية"[1]

يقول السعدي: " ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ ﴾ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة، ﴿ وَزْنًا ﴾ لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله ﷻ، واتخاذهم آياته ورسله، هزوا يستهزئون بها، ويسخرون منها، مع أن الواجب في آيات الله ﷻ ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتعسوا، وانتكسوا في العذاب. ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم"[2]

قال محمد بن واسع ﷺ : "ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا اعوججت قومني، وصلاة في جماعة يحمل عني سهوها، وأفوز بفضلها، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منّة، ولا لله ﷻ فيه تبعة"[3]

---

[1] التفسير المنير (16/ 37).
[2] تيسير الكريم الرحمن (1/ 487).
[3] صفة الصفوة (2/ 160).

الفقرة التاسعة

جزاء المؤمنين وسعة معلومات اللّه ﷻ وتوحيده

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾

الكهف: ١٠٧ - ١١٠

الآية السابعة والمائة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ الكهف: ١٠٧

يختم الله ﷻ سورة الكهف ببيان فضل وجزاء المؤمنين الطائعين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ومكانتهم يوم القيامة، وتختم أيضاً بسعة علم الله ﷻ واتساع معلوماته وأنها غير متناهية، وتوحيده، وإخلاص الأعمال له، والإعلام ببشرية النبي ﷺ ومماثلته لبقية الناس في ذلك، وأن علمه مستمد من الوحي الإلهي.

قال البيضاوي: "والآية جامعة لخلاصة العلم والعمل، وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة، بالبعد عن الرياء وهو الشرك الأصغر أو الخفي"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي إن السعداء هم الذين آمنوا بالله ﷻ ورسوله ﷺ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا صالح الأعمال من إقامة الفرائض والتطوعات، ابتغاء رضوان الله ﷻ، لهم جنات الفردوس: (وهي أعلى الجنة وأوسعها وأفضلها) منزلاً معدّاً لهم، مبالغة في إكرامهم. والفردوس في كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وفي اللغة الرومية: البستان"[2]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة"[3]

قال كعب: "ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، فيها الآمرون بالعروف والناهون عن المنكر"[4]

---

[1] تفسير البيضاوي (3/ 295).
[2] التفسير المنير (16/ 41).
[3] صحيح البخاري (4/ 16).
[4] تفسير الطبري (18/ 131)، تفسير البغوي (3/ 222)، تفسير القرطبي (11/ 68).

قال السعدي: " أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة، فهؤلاء – على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح – لهم جنات الفردوس. يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب، لمن كمل فيه الإيمان والعمل الصالح، والأنبياء والمقربون.

ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نزل، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي: ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة،، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها، وأدومها وأكملها، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم

بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتاً تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت فكان، ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[1]

قال الحسن البصري رحمه الله: "إن هذا الدين دين واصب، وإنه من لا يصبر عليه يدعه، وإن الحق ثقيل، وإن الإنسان ضعيف، وكان يُقال: ليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق، فإنه لا يدري ما قدر له أجله، وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف وكلَّف نفسه ما لا يطيق أوشك أن يسبِّب ذلك كله حتى لعله لا يقيم الفريضة، وإذا ركب نفسه التيسير والتخفيف وكلف نفسه ما لا تطيق كان أكيس، وكان يُقال: شر السير الحقحقة[2]" [3]

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 488).

[2] الحقحقة: شدة السير وأتعبه للظهر، أو المتعب من السير.

[3] الزهد والرقائق لابن المبارك (1/ 468).

الآية الثامنة والمائة: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨ ﴾ الكهف: ١٠٨

من تمام نعيم الجنة وكماله أنه غير منقطع ولا زائل، فأهل الجنة مقيمون فيها إقامة دائمة وخلود لا نهاية له، ولعظيم ما فيها من النعيم والخيرات، لا يرغب أهل الجنة في أن ينتقلوا منها، أو أن يتحولوا عنها، فهي دار النعيم المقيم.

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي مقيمين ساكنين فيها على الدوام، لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها، ولا يريدون تحولاً عنها، عن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إن في الجنة مئة درجة، كل درجة منها ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومن فوقها يكون العرش، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس"[1][2]

قال السعدي: " ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿ لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾ أي: تحولاً ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه"[3]

قال ابن عباس ﷺ: "لا يريدون أن يتحولوا عنها، كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى"[4]

---

[1] سنن الترمذي (4/ 675).

[2] التفسير المنير (16/ 42).

[3] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 488).

[4] التفسير الوسيط للواحدي (3/ 171)، تفسير البغوي (3/ 222)، توفيق الرحمن في دروس القرآن (3/ 42).

قال خالد بن معدان رحمه الله: "ما من عبد إلا وله أربع أعين: عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فيبصر بهما أمر الآخرة، وإذا أراد الله عز وجل بعبد غير ذلك تركه على ما هو عليه، ثم قرأ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد: ٢٤ [1]

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (5/ 212).

الآية التاسعة والمائة: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ ﴾ الكهف: ١٠٩

في هذه الآية يخبر الله ﷻ عن عظمة شأن القرآن وسعة علمه واتساع معلوماته.

فلما ادعت اليهود أنها قد أوتيت علماً كثيراً، وتباهت بالتوراة وبأن فيها علم كل شيء؛ بيَّن ﷻ في هذه الآية أن ما أوتي اليهود من علم الله ﷻ لا يعدو قطرة من علمه غير المتناهي، يتكلم بمشيئته وقدرته شيئاً بعد شيء، فهو لم يزل متكلماً إذا شاء، وأن كلماته لا نهاية لها.

قال الربيع بن أنس: "إن مثل علم العباد كلهم في علم الله ﷻ كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ﷻ ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ ﴾ الآية، يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله ﷻ، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله ﷻ قائمة لا يفنيها شي؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا ﷻ كما يقول، وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة خردل في خلال الأرض كلها"[1]

يقول وهبة الزحيلي في تفسيره لهذه الآية: "أي قل أيها الرسول لهم: لو كتبت كلمات علم الله ﷻ وحكمته، وكان ماء البحر حبراً للقلم الذي يكتب به، والقلم يكتب، لنفد البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك، ولو جيء بمثل البحر آخر وآخر وهكذا لنفد أيضاً، ولم تنفد كلمات الله ﷻ. وهذا دليل على كثرة كلمات الله ﷻ،

[1] معارج القبول بشرح سلم الوصول (1/ 256)، تفسير ابن كثير (5/ 204)

وسعة علم الله ﷻ وحكمته وأسراره، بحيث لا تضبطها الأقلام والكتب، ونظير الآية قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ لقمان: ٢٧ [1]

قال ابن عاشور: "لما ابتدأت هذه السورة بالتنويه بشأن القرآن، ثم أُفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذُكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة وموعظة، وما هو خفي من أحوال الأمم؛ حُوّل الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله ﷻ. فهذا استئناف ابتدائي، وهو انتقال إلى التنويه بعلم الله ﷻ مفيض العلم على رسوله ﷺ لأن المشركين لما سألوه عن أشياء يظنونها مفحمة للرسول ﷺ، وأن لا قبل له بعلمها علمه الله ﷻ إياها، وأخبر عنها أصدق خبر، وبينها بأقصى ما تقبله أفهامهم، وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال عنها. وكان آخرها خبر ذي القرنين، أتبع ذلك بما يُعلم منه سعة علم الله ﷻ، وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله. وفي هذا رد عجز السورة على صدرها"[2]

يقول ابن قدامة: "فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد جعله قولاً للبشر، وهذا مما أنكره الله ﷻ على المشركين، ولأن الله ﷻ قال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ فلو كانت البحار

[1] التفسير المنير (16/ 42)
[2] التحرير والتنوير (16/ 51-52)

مداداً يكتب به لنفدت البحار وتكسرت الأقلام، ولم يلحق الفناء كلمات الله ﷻ كما لا يلحق الفناء علم الله ﷻ، لأن من فني كلامه لحقته الآفات وجرى عليه السكوت، فلما لم يجرِ ذلك على ربنا ﷻ صح أنه لم يزل متكلماً، ولا يزال متكلماً، وقد نفى النفاد عن كلامه كما نفى الهلاك عن وجهه"[1]

ويقول ابن الجوزي: "وإنما لم تنفد كلمات الله ﷻ لأن كلامه صفة من صفات ذاته، ولا يتطرق إلى صفاته النفاد"[2]

قال السعدي: "فلو جُمِع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم ﷻ، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته"[3]

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب"[4]

[1] لمعة الاعتقاد: ابن قدامة المقدسي (96/1)
[2] زاد المسير (3/ 114)
[3] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 488)
[4] بيان المعاني (3/ 160).

الآية العاشرة والمائة: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف: ١١٠

وبعد بيان كمال كلام الله ﷻ، أمر ﷺ محمداً ﷺ بالتواضع فقال:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي قل يا محمد لهم: ما أنا إلا بشر مثلكم في البشرية، ليس لي صفة الملَكية أو الألوهية، ولا علم لي إلا ما علمني الله ﷻ، إلا أن الله ﷻ أوحى إلي أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد، فلا شريك له في ألوهيته، فمعبودكم الذي يجب أن تعبدوه هو معبود واحد لا شريك له.

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ أي فمن آمن بلقاء الله ﷻ، وطمع في ثواب الله ﷻ على طاعته، فليتقرب إليه بصالح الأعمال، وليخلص له العبادة، وليجتنب الشرك بعبادة الله ﷻ، أحداً من مخلوقاته، سواء أكان شركً ظاهراً كعبادة الأوثان، أم شركاً خفياً كفعل شيء رياء أو سمعة وشهرة، والرياء: هو الشرك الأصغر، فعن محمود بن لبيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين

كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء[1]"[2]

قال الرازي: "أورد ﷻ في آخر هذه السورة ما يدلّ على حصول رؤية الله ﷻ في ثلاث آيات:

أولها قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾

وثانيها قوله: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾

وثالثها قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ولا بيان أقوى من ذلك"[3]

يقول السعدي: " أي: قل يا محمد للكفار وغيرهم: إنما أنا بشر مثلكم؛ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله ﷻ، إنما أنا بشر مثلكم عبد من عبيد ربي، يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد؛ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحيه الله ﷻ إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما إلهكم إله واحد؛ أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه، ولهذا قال: فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً وهو الموافق لشرع الله ﷻ، من واجب ومستحب، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً؛ أي: لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله ﷻ، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه"[4]

---

[1] مسند أحمد (39/ 39).
[2] التفسير المنير (16/ 43).
[3] التفسير الكبير للرازي (21/ 504).
[4] تيسير الرحمن الكريم (1/ 489).

والآية عامة في جميع الأعمال من عبادة وجهاد وصدقة وغيرها، وموضوعها إخلاص العمل لله ﷻ، سئل الحسن البصري ﷺ عن الإخلاص والرياء فقال: "من الإخلاص أن تحب أن تُكْتَم حسناتُك، ولا تحب أن تُكْتَم سيئاتُك، فإن أظهر الله ﷻ عليك حسناتك تقول: هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتَذَكَّرْ قوله ﷻ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف: ١١٠، وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ ﴿٦٠﴾ ﴾ المؤمنون: ٦٠، يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم. وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا؛ قيل له: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبين الله ﷻ سوى وجه الله ﷻ والدار الآخرة فهو رياء"[1]

قال ابن القيم ﷺ: "نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فيُنيى، ويظن العبد إنه لا يغير بعد ذلك، وسبحان الله ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق، وكم أزالت من نعمة، وكم جلبت من نفقة، وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلاً عن الجهال، ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقصُ ولو بعد حين كما ينقص السهم، وكما ينقصُ الجرح المندمل على الغش والدغل"[2]

[1] تفسير القرطبي (11/ 71).
[2] الداء والدواء لابن القيم (1/ 130).

الخـاتمـة

الحمد لله ﷻ الذي وفقنا في تقديم هذا الكتاب، وقد كان الكتاب يتكلم عن **موضوع سورة الكهف وقصصها ومواضيعها**، وقد بذلتُ كل الجهد والبذل لكي يخرج هذا الكتاب في هذا الشكل. ونرجو من الله ﷻ أن تكون رحلة ممتعة وشيقة، وكذلك نرجو أن تكون قد أرتقت بدرجات العقل والفكر، حيث لم يكن هذا الجهد بالجهد اليسير، وأنا لا أدعى الكمال فإن الكمال لله ﷻ فقط، وأن قد قدمتُ كل الجهد لهذا الكتاب، فإن وفقنا فمن الله ﷻ وإن أخفقنا فمن أنفسنا، وكفانا نحن شرف المحاولة، وأخيراً نرجو أن يكون هذا الكتاب قد نال إعجابكم.

وصل اللهم وسلم وبارك تسليماً كثيراً على معلمنا الأول وحبيبنا نبينا محمد ﷺ.

الفهرس

الآية	رقم الصفحة
الإهداء	2
المقدمة	3
ملحوظات	7
تعريف عام بالسورة	8
الآية الأولى	22
الآية الثانية	25
الآية الثالثة	28
الآية الرابعة	29
الآية الخامسة	31
الآية السادسة	33
الآية السابعة	35
الآية الثامنة	38
الآية التاسعة	44
الآية العاشر	46
الآية الحادية عشر	49
الآية الثانية عشر	51
الآية الثالثة عشر	53
الآية الرابعة عشر	56
الآية الخامسة عشر	59

الآية السادسة عشر	61
الآية السابعة عشر	64
الآية الثامنة عشر	69
الآية التاسعة عشر	72
الآية العشرون	76
الآية الحادية العشرون	78
الآية الثانية العشرون	81
الآية الثالثة العشرون	84
الآية الرابعة العشرون	84
الآية الخامسة العشرون	88
الآية السادسة العشرون	88
الآية السابعة العشرون	94
الآية الثامنة العشرون	96
الآية التاسعة العشرون	99
الآية الثلاثون	103
الآية الحادية والثلاثون	105
الآية الثانية والثلاثون	111
الآية الثالثة والثلاثون	113
الآية الرابعة والثلاثون	114
الآية الخامسة والثلاثون	116
الآية السادسة والثلاثون	117
الآية السابعة والثلاثون	119

الآية الثامنة والثلاثون	121
الآية التاسعة والثلاثون	122
الآية الأربعون	124
الآية الحادية والأربعون	124
الآية الثانية والأربعون	127
الآية الثالثة والأربعون	129
الآية الرابعة والأربعون	130
الآية الخامسة والأربعون	136
الآية السادسة والأربعون	139
الآية السابعة والأربعون	141
الآية الثامنة والأربعون	144
الآية التاسعة والأربعون	146
الآية الخمسون	151
الآية الحادية والخمسون	155
الآية الثانية والخمسون	158
الآية الثالثة والخمسون	161
الآية الرابعة والخمسون	163
الآية الخامسة والخامسون	165
الآية السادسة والخمسون	168
الآية السابعة والخمسون	171
الآية الثامنة والخمسون	173
الآية التاسعة والخمسون	175

الآية الستون	181
الآية الحادية والستون	183
الآية الثانية والستون	184
الآية الثالثة والستون	185
الآية الرابعة والستون	187
الآية الخامسة والستون	188
الآية السادسة والستون	189
الآية السابعة والستون	191
الآية الثامنة والستون	192
الآية التاسعة والستون	193
الآية السبعون	194
الآية الحادية والسبعون	195
الآية الثانية والسبعون	197
الآية الثالثة والسبعون	198
الآية الرابعة والسبعون	200
الآية الخامسة والسبعون	203
الآية السادسة والسبعون	205
الآية السابعة والسبعون	207
الآية الثامنة والسبعون	210
الآية التاسعة والسبعون	211
الآية الثمانون	212
الآية الحادية والثمانون	213

الآية الثانية والثمانون	215
الآية الثالثة والثمانون	221
الآية الرابعة والثمانون	222
الآية الخامسة والثمانون	224
الآية السادسة والثمانون	224
الآية السابعة والثمانون	228
الآية الثامنة والثمانون	229
الآية التاسعة والثمانون	231
الآية التسعون	231
الآية الحادية والتسعون	232
الآية الثانية والتسعون	233
الآية الثالثة والتسعون	233
الآية الرابعة والتسعون	236
الآية الخامسة والتسعون	239
الآية السادسة والتسعون	241
الآية السابعة والتسعون	243
الآية الثامنة والتسعون	245
الآية التاسعة والتسعون	247
الآية المائة	251
الآية الحادية والمائة	253
الآية الثانية والمائة	255
الآية الثالثة والمائة	257

الآية الرابعة والمائة	257
الآية الخامسة والمائة	260
الآية السادسة والمائة	262
الآية السابعة والمائة	265
الآية الثامنة والمائة	268
الآية التاسعة والمائة	270
الآية العاشرة والمائة	273
الخاتمة	276
الفهرس	277